الفيصل

- حماية مراسلي الإعلام في المناطق الملتهبة
- سيكولوجية الكوميديا والكوميديين
- الاستشراق وفن التصوير
- ديفيد لونغ: لا توجد رؤية أمريكية واحدة للمملكة




www.alfaisal-mag.com



العدد ٤٤١-٤٤٢ / الربيعان ١٤٣٤هـ

المحتويات

المراسلات للتحرير والإدارة

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١

المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي

١٥٠ ريالاً سعوديًا للأفراد، ٢٥٠ ريالاً سعوديًا للمؤسسات، أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ - ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع
في مكتبة الملك فهد الوطنية

١٤/٢٤٥٠

ردمد ٠٤١١-٠٨٥٢

الناشر

دار الفيصل الثقافية

www.alfisal-mag.com
contact@alfaisal-mag.com
alfaisalmagazine@yahoo.com



وقفت صامدةً وحيدةً أمام آلة القوة وهي تغتصب حقوق الضعفاء، ولم تتسلّح إلا بعقيدتها الصافية في الدفاع عنهم والتضامن معهم. أرادت أن تنقل الواقع الحقيقي إلى العالم بأسره فراحت ضحية هذا الواقع. أفردت (الجارديان) البريطانية إحدى افتتاحياتها لقضية مقتلها، ووصفتها بأنها ذاكرة تأبى الموت، وتضعها (الفيصل) اليوم على صدر غلافها؛ لتؤكّد أنها قصة شغلت الغرب ولم ينسها العرب. إنها راشيل كوري الأمريكية التي دهستها جرافة إسرائيلية وهي تدافع عن منازل الفلسطينيين، فرفعها ضمير الإنسانية إلى فضاء الشموخ وذاكرة التاريخ.

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.

في حال إرسال قصة مترجمة يرجى إرفاق الأصل المترجم.

- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدرًا من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض تشمل: عنوانه، واسم مؤلفه، ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- نأمل من الإخوة الكتاب الذين يراسلون المجلة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- لا تمنح مكافآت على ما ينشر في بابي «رسائلكم» و«ردود وتعقيبات ».
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
- يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
- يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
- التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
- تشكيل الشعر ما أمكن، خصوصًا القديم منه.
- ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولاتعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي

السعودية ١٠ ريالات ـ الكويت ٨٠٠ فلس ـ الإمارات ١٠ دراهم ـ قطر ١٠ ريالات ـ البحرين دينار واحد ـ عُمان ريال واحد ـ الأردن ٧٥٠ فلساً ـ اليمن ١٠٠ ريال ـ مصر ٤ جنيهات ـ السودان ١,٥ جنيه ـ المغرب ١٠ دراهم ـ تونس ١,٢٥٠ دينار ـ الجزائر ٨٠ دينارًا ـ العراق ٨٠٠ فلس ـ سورية ٤٥ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنكاً ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية ـ الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع ـ هاتف ٤٨٧١٤١٤(٠١) ـ فاكس ٤٨٧١٤٦٠(٠١)، مصر ـ مؤسسة توزيع الأهرام ـ شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ ـ فاكس ٣٣٩١٠٩٦ ـ ٢٠٢...، سورية ـ المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ٥٣٠١ هاتف ٨٤٢٨٢١٢ ـ فاكس ٢١٢٢٥٣٢ ـ ١١ ـ ٠٠٩٦٣، تونس ـ الشركة التونسية للصحافة ـ ٣ نهج المغرب ـ ص.ب ٧١٩ ـ فاكس ٧١٤٠٠٣٢٣/ هاتف ٩٣٢٢٤٩ ـ ٧١ ـ ٠٠٢١٦، قطر ـ دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ـ ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٤٦٦١٢٨٢ ـ فاكس ٤٦٦١٨٦٥ ـ ٠٠٩٧٤، الأردن ـ شركة وكالة التوزيع الأردنية ـ ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ ـ فاكس ٤٦٣٥١٥٢ ـ ٦ ـ ٠٠٩٦٢، البحرين ـ مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ ـ فاكس ٥٣١٢٨١ ـ ٠٠٩٧٣، الإمارات العربية المتحدة ـ مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٤٩٣٥٦٦٢ ـ فاكس ٢٦٦٩٨٢٧ ـ ٤ ـ ٠٠٩٧١، الكويت ـ شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ ـ فاكس ٢٤١٧٨٠٩ ـ ٠٠٩٦٥، المغرب ـ الشركة الشريفية لتوزيع الصحف فاكس: ٢٢٤٠٤٠٣١/٣٢ ـ ٠٠٢١٢ ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣، الجمهورية اليمنية ـ القائد للنشر والتوزيع هاتف: ٢٠١٩٠١/٢ ـ ٣ ـ ٠٠٩٦٧ فاكس: ٢٠١٩٠٩/٧

alfaisalmagazine@yahoo.com

رســــائلكم



«الفيصل» في اليمن

أنا أحد قرّاء مجلة (الفيصل) الحريصين على اقتناء كلّ عدد منها، وقد لاحظت تأخّر وصول المجلة إلى الأسواق اليمنية في المدة الأخيرة، كما أعاني عدم وصول بعض الأعداد إلى حضرموت وغيرها من مناطق اليمن؛ إذ يكون تركيز التوزيع في صنعاء وعدن.

آمل مخاطبة شركة التوزيع بضرورة التوزيع في كلّ المدن؛ لأن لـ(الفيصل) قرّاء كثيرين في اليمن، وهم حريصون على متابعتها، وأتمنى لكم التوفيق.

عبدالله بن عمر بن عبيد

حضرموت- سيؤن- اليمن

التحرير

نحاول إيجاد حلّ لتأخّر وصول المجلة إلى اليمن وغيرها من الدول، أما عدم توزيع المجلة في غير صنعاء وعدن فسوف نخاطب بشأنه الموزّع بأمل إيجاد الحلّ الذي يرضي قرّاء المجلة في كلّ ربوع البلد.



علاقة عمرها ثلاثون عاماً

أحببت مجلة (الفيصل) منذ طفولتي قبل ما يقارب الثلاثين عاماً حين كان رئيس تحريرها الأستاذ علوي الصافي، كنت أقتنيها كلّ شهر، ولا أزال أحتفظ بمجموعة من أعدادها في سنوات الثمانينيات الميلادية.

كم سرّني هذا الموقع، والتطور الذي وصلت إليه مجلتنا الحبيبة، واليوم يسعدني أن أتواصل معكم.

د. محمد بن عبدالله الطلحي

الرياض- السعودية

التحرير

يسرّنا عودتك إلى التواصل مع المجلة، ونأمل أن نكون عند حسن ظنّك، وأن تلبّي خطوات التطوير رغبات الإخوة القرّاء في ظلّ ما نعانيه من انحسار المجلات الثقافية، وسوف نسعد بنشر أعمالك النثرية أو الشعرية.



خوف من التشويه

قرأتُ حوار نائب رئيس التحرير مع المفكر العربي الأمريكي شبلي تلحمي في العدد الماضي، وحاولت أن أصل إلى عدد من النتائج من خلال ما أدلى به الدكتور شبلي، وأهم ما استرعى انتباهي هو تقديره دور الإعلام، وتأكيده أن العلاقة بين الفرد والدولة قد تغيّرت، وهو ما يمثّل رداً على من يريدون تشبيه من أتت بهم الثورات بمن سبقوهم؛ لأنه لا عودة

إلى دولة الفرد الذي يحكم ويسيّر الأمور كيف يشاء. لكن تغيّر وجهة النظر الأمريكية، التي أشار إليها الضيف، من كون الثورات شعبية إلى أن الحركات الإسلامية هي التي تقوم بها للاستيلاء على السلطة، فيها تشويه لتلك الثورات، وخوف من أن تتحوّل السياسة الأمريكية من عدم التدخّل في مجريات الأمور إلى التدخّل بشكل مباشر أو غير مباشر بدعوى الدفاع عن مصالحها.

عموماً، مثل هذه الحوارات مفيدة جداً لمعرفة كيف تفكّر أمريكا والغرب، وهو دور تُشكر (الفيصل) على اضطلاعها به، وآمل المزيد من الحوارات مع مفكّرين آخرين وصنّاع قرار، وتقبّلوا وافر تقديري.

د. عبدالمنعم أحمد علي

الرياض- السعودية

التحرير

نشكر لك متابعتك، ونَعِدُك بمزيد من الحوارات مع ممثّلي مختلف التيارات في داخل الوطن العربي وخارجه؛ لأن الحوار الحضاري أساس للتواصل الإنساني ومعرفة الآخر.

مشكلة التوزيع في السودان

لاحظت عدم توافر مجلتكم الموقرة في السودان منذ مدة طويلة على الرغم مما لها من صيت واسع، واهتمام كبير من القرّاء. ولأنه يعزّ على كثيرين شراء الكتب الباهظة الثمن، ولكون مَن في سني لا يلجؤون في الأغلب إلى الإنترنت لتلقّي المعرفة مع أنها وسيلة حيوية ومهمة، فإننا كنا نجد في (الفيصل) ملاذاً ومصدراً للثقافة الجادة التي تتّسم بالتنوّع وعمق التناول. وإذا كانت هناك مشكلات توزيع في السودان فإنني مستعد لوضع خبراتي في مجال التوزيع رهن إشارة المجلة؛ حتى تعود (الفيصل) تنير مكتبات الخرطوم، كما أن لديّ خبرةً في التوزيع في أقاليم السودان المختلفة.

آمل لكم التوفيق، ولـ(الفيصل) كلّ ازدهار.

محمد توفيق جبر

الخرطوم - السودان

التحرير

نشكر لك اهتمامك الكريم، وبالفعل سعينا إلى حلّ مشكلة التوزيع في السودان كثيراً، ولم تكلّل جهودنا بالنجاح، فنأمل التنسيق معك لمعرفة مدى إمكانك المساهمة فعلاً في حلّ المشكلة، شاكرين لكم ذلك.



رضا عبدالحكيم إسماعيل رضوان
الشرقية – مصر

حماية مراسلي الإعلام
في المناطق الملتهبة

يقصد بالأحداث في المناطق الخطيرة أو الملتهبة تلك الأحداث التي تقع في بيئة عنيفة متأججة يمارس فيها مراسلو الإعلام تغطية الأخبار، كما في ظروف الحروب والعمليات القتالية في أثناء الحروب الأهلية أو الثورات.

ومن المعلوم أن الوقائع الملتهبة تمثّل حجر عثرة في مواجهة المراسلين الوطنيين أو الأجانب، سواء أكانوا منتمين إلى الإعلام المقروء، كما في المجلات والصحف والنشرات الدورية وغيرها، أم الإعلام المسموع كالراديو، أم الإعلام المرئي، ويتمثّل في البثّ المباشر عبر التلفاز، ومن خلال تكنولوجيا المعلومات الحديثة. وعلى الرغم من كلّ ذلك يحرص الإعلام المعاصر من خلال مراسليه المتخصصين على ضرورة الانتقال إلى قلب الحدث، ومتابعة مجريات الوقائع، ونقلها فوراً إلى مصدر البثّ الإعلامي؛ كي يؤدي الأخير دوره المنشود في إعلام الرأي العام والجماهير بحقيقة الأوضاع.

الإعلاميون عُرضة للعنف الرسمي في بعض الدول



يؤدي المراسل الإعلامي الدور الأول في رصد المعلومات الآنية وطرحها، تلك المعلومات التي تمثّل الرافد الرئيس في التواصل والتفاعل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، سواء على المستوى الوطني أم المستوى العالمي.

السبق الإعلامي في تغطية الأخبار

على الإعلاميين أن يكونوا حيث يندلع العنف والقتال؛ لضمان سرعة المعلومة ودقتها، وهو أمر غير محكوم بمكان معين. ويلاحظ أن التغطية الإعلامية للصراع القائم من موقع الحدث تجعل الإعلاميين في حالة صراع من حيث وقاية أنفسهم ورغبتهم الملحة في نقل الحدث لحظةً بلحظة بدقة فائقة، وهو مجال تنافس شديد بين الروافد الإعلامية، وهذا الأمر يطرح في مواجهتهم مشكلات عصيّة بسبب تعدد الجبهات والمواقع الواجب النفاذ إليها، وقد دلّت التجربة على تعرّض مراسلي الإعلام لعدة انتهاكات؛ مثل: الاعتقال، والحبس، والضرب، بل سقط كثير منهم قتلى. كل هذا نتيجة دخولهم في عمق الحدث، ومحاولة استيعاب الوقائع وتغطية الأخبار. وهذا الأمر واضح منذ عدة عقود على إثر تغطية أحداث الحروب والعمليات القتالية المصاحبة للحروب الأهلية، وحتى وقت قريب كانت إسرائيل على قمة الدول المعتدية على مراسلي الإعلام في الأراضي المحتلة، وحالياً صاحب ثورات الربيع العربي قتل أعداد من المراسلين العرب والأجانب، كما ورد في تقارير المنظمات المعنية بسلامة الصحفيين في مناطق الحروب والنزاعات والثورات.

الاعتداء على مراسلي الإعلام

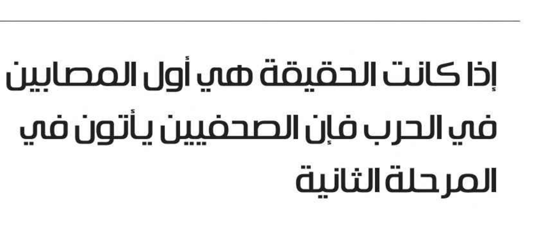
عوداً إلى بداية التسعينيات، صدر تقرير جمعية القانون الدولي- فرع أستراليا، وورد فيه: «إذا كانت الحقيقة هي أول المصابين في الحرب فإن الصحفيين يأتون في المرحلة الثانية، والأمثلة على ذلك كثيرة: ففي جمهورية يوغسلافيا السابقة

قُتل بين عامي ١٩٩١ و١٩٩٦م ما لا يقلّ عن ٧٥ صحفياً، وهو ما يفوق عدد الصحفيين الذين قتلوا في حرب فيتنام. كما كان عام ١٩٩٤م هو عام نكبة بالنسبة إلى الصحفيين؛ إذ قتل ١٠٣ صحفيين معظمهم في رواندا، وفي عام ١٩٩٥م قُتل ما لا يقلّ عن ٤٩ صحفياً، وفي عام ١٩٩٦م كان العدد ثمانية».

وفي الأراضي المحتلة وقع كثير من الانتهاكات ضد الإعلاميين الذين يتابعون نشر الحقائق، وكشف فضائح السلطات الإسرائيلية؛ فقد تضمّن خطاب كاشف أرسلته لجنة حماية الصحفيين التابعة للأمم المتحدة إلى الحكومة الإسرائيلية في ١٢ يناير ٢٠١٢م الانتهاكات الإسرائيلية ضد الصحفيين الذين تلقي بهم ظروف عملهم في أتون التغطيات الصحفية لأحداث الأراضي الفلسطينية المحتلة الواقعة تحت السيطرة الإسرائيلية أو داخل إسرائيل. أبدت اللجنة في هذه الرسالة اهتمامها بالاعتداءات المتواصلة، واحتجاز الصحفيين في الأراضي المحتلة، واهتمامها أيضاً بسلسلة من التطورات التي حدثت مؤخراً من شأنها أن تمثّل قيوداً على حرية الصحافة في إسرائيل، وأشارت إلى أن الاعتداءات على الصحفيين الفلسطينيين، ومواصلة احتجاز عدد منهم من دون محاكمة أو توجيه اتهام لهم، يخلق بيئةً تقوّض حرية الإعلام، وطالبت اللجنة الحكومة بالإفراج عن الصحفيين أو التحقيق معهم وتوجيه اتهام لهم.

كذلك رصدت اللجنة كل الاعتداءات البدنية على الصحفيين الفلسطينيين والأجانب والإسرائيليين منذ نوفمبر عام ٢٠١١م، واحتجت في رسالتها على الحكومة لدهمها منزل مراسل صحيفة الخليج الإماراتية واعتقاله ومصادرة حاسوبه، ومنعها دخول صحفي أمريكي يعمل لمصلحة شبكة أنباء فلسطين إلى الضفة الغربية لتجديد إقامته. كما رصدت اللجنة تعرّض الصحفيين لإصابات في الرأس والبطن جرّاء إطلاق الرصاص المطاطي عليهم والغاز المسيل للدموع؛ لمنعهم من تغطية المظاهرات الأسبوعية المناهضة للمستوطنات اليهودية.

وطبقاً لتقرير الاتحاد الدولي للصحفيين ضمّت قوائم الموت ١٠٦ صحفيين عام ٢٠١١م، بزيادة ١٢ قتيلاً على حصيلة عام ٢٠١٠م؛ مما جعل اتحاد الصحفيين يعدّها السنة الأخطر على سلامة الصحفيين. وكان نصيب المنطقة العربية من هذه الإحصائية ٢٣ صحفياً: ستة في ليبيا، وستة في اليمن، وأحد



سرعة تدفق المعلومة في عصر الميديا، وصحافة حقيبة الظهر، فرضا حسابات إعلامية جديدة لم ينفع معها لا التعتيم ولا الحظر



عشر صحفياً في العراق؛ ليظلّ الموت هو العقوبة الأقصى التي يلقاها الصحفي على أيدي الخائفين من الحقيقية في بلدان الثورات وعلى خطوط القتال.

هناك معركة شرسة تجاه الصحافة؛ فبالعودة إلى بيانات المنظمات المعنية بسلامة الصحفيين في مناطق الحرب والنزاع، وتحديداً التي تخصّ ميادين الثورات، كما في أيامنا هذه، يتبيّن أن حياة الصحفيين في عُرف أنظمة القمع العربية يجب أن تكون مهددةً ومحفوفةً بالمخاطر، بل لابد من ضحايا عبرة لمن أراد الوقوف في صف الحقيقة، وإن لم يكن بالضرورة طرفاً في المواجهة.

يبقى الوصول إلى المعلومة هدفاً حيوياً لترسيخ حرية الصحافة، بل الحرية عامةً. ولتطويق هذا الهدف المنشود تستخدم الحكومات المعادية لحرية الصحافة إعلامها المضاد، وتحشد كل أشكال الدعاية من وكالات وقنوات وصحف موالية للتستر قدر ما تستطيع على انتهاك حقوق الأفراد والجماعات، لكن سرعة تدفق المعلومة في عصر الميديا، وصحافة حقيبة الظهر، فرضا حسابات إعلامية جديدة لم ينفع معها لا التعتيم ولا الحظر. وفي واقع الحال يعيش الصحفيون العاملون في بلدان السيطرة على المعلومات أخطاراً يومية بوقوفهم في صف معارضة النظام. وتتمثّل هذه الأخطار في التهديدات المتكرّرة بطرد الصحفي من مهنته؛ فحسب منظمة (مراسلون بلا حدود) «يعاني ما يقرب من ثلاثة آلاف صحفي من البطالة؛ بسبب وقوعهم ضحايا تعليق الصحف، أو منع أسر تحريرهم من إعادة توظيفهم».



الصحفيون في الدولة حضور دائم في مواقع الأحداث

التنظيم الدولي والتدابير الأمنية

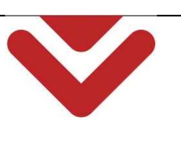
لا يخفى على المحترفين الذين يتوجهون إلى المناطق الخطيرة أنه ينبغي عليهم توقع المخاطر، وأن التعرض للنيران في أثناء وجودهم في المناطق الملتهبة أمر وارد؛ لذلك يتدرب الصحفيون على كل الاحتياطيات الضرورية لتجنب الإصابة في أرض المعارك. ولتفادي فخاخ ميادين الثورات يؤمّن الصليب الأحمر الفرنسي الدورات التدريبية بالتعاون مع القسم الفرانكوفوني من الصليب الأحمر البلجيكي، وتقام هذه الدورات في مركز ألبارون Albaron للتدريب في مودان بفرنسا، وتدور حول السلامة وإدارة الضغوطات مع تمارين تطبيقية. كما يقدم المعهد عرضاً وقائياً حول الأمراض الاستوائية والمخاطر الصحية التي قد يتعرض لها الصحفي، ويشرح مهندسون متخصّصون المخاطر المرتبطة بوجود الألغام.

وعلى الصعيد الميداني، تتكفّل بعض المنظمات الصحفية كـ(مراسلون بلا حدود) بإعارة معدات مجانية للحماية في أماكن النزاع المسلح، وتشمل: الخوذ والسترات الواقية من الرصاص الحاملة لعلامة PRESS أو TV، وحقائب الإسعافات الأولية RSF- Audiens، وخدمات هاتفية سريعة ومجانية بتقنية PCV للطوارئ في حال تعرّض الصحفيين للخطر بدعم من SOS Presse و American Express، إضافةً إلى أجهزة استغاثة تعيرها مؤسسة Sierra Echo مزوّدة بنظام GPS يسمح بتحديد موقع حاملها في أماكن مغطاة بشبكة GSM، إلا أنه يتعيّن على الصحفيين المستفيدين من إعارة المعدات إيداع مبلغ مالي يقدّر بألف يورو كفالةً، مع ملء استمارة حول المهمة



التعاون ضروري لحماية الصحفيين

لا سبيل إلى حماية الصحفيين إلا بتعزيز التعاون بين وكالات الأمم المتحدة والمنظمات الحكومية الدولية الأخرى على الصعيدين الدولي والإقليمي، كما أن من المهم أيضاً تعزيز الشراكات بين الأمم المتحدة ومنظمات المجتمع المدني والجمعيات المهنية، وترسيخها مراقبة سلامة الصحفيين والعاملين في وسائل الإعلام على المستويات الوطنية والإقليمية والدولية. كما تتطلب الحاجة إقرار معاهدة دولية تتناول الحماية الجنائية لرجال الإعلام، وإقرار مبادئ ملزمة للتشريعات الوطنية في إطار مبادئ القانون الدولي التي تنصّ على كفالة حقوق الصحفيين المدنيين المكلفين تغطية الأخبار وطنياً وعالمياً.



أخطار محدقة

من الأخطار المحيطة بالصحفي وضعه ضمن اللائحة السوداء، وصولاً إلى الاعتقال والتعذيب تحت طائلة الجنحة الصحفية التي يُعاقب عليها بالقانون الجنائي الذي يمنع نشر أيّ تحقيق من شأنه أن يسيء إلى الأمن القومي أو الوحدة الوطنية. أما حين يتعلق الأمر بتقرير مصير أو ثورة ضد نظام مستبد فإن هذا الأخير يضع ضمن خياراته الأمنية نصب فخاخ تستهدف حياة الصحفيين، وقد شهدت الثورات العربية منذ مطلع عام ٢٠١١م إلى الآن تفاقم هذه الظاهرة بشكل لافت، وأصبح الصحفيون، سواء المحليون منهم أم الأجانب، عرضةً للمخاطر والانتهاكات بأنواعها شتى: من ترهيب واختطاف، وتخريب للمقرات والمعدات، ومصادرة المطبوعات، والاعتقالات التعسفية، وسحب الاعتمادات، وترحيل الصحفيين الأجانب.

يواجه الإعلاميون ألواناً من التعسف والقهر



والمكان، ومعلومات احتياطية للاتصال بهم عند الضرورة.

قادت بعض المنظمات مظاهرات دولية شعبية، مثل الاتحاد الدولي للصحفيين الذي يضم في عضويته قرابة ٦٠٠ ألف صحفي، والذي قام بحشد مظاهرات ضد المؤسسات الأمريكية منذ عام ٢٠٠٤م، لكن من دون أيّ نتيجة. كما أن هناك بعض المنظمات التي خصّصت خطاً ساخناً لتلقي شكاوى الصحفيين وذويهم في حالات الخطر، مثل اللجنة الدولية للصليب الأحمر، لكن على الرغم من توافر هذه الخدمة منذ سنوات إلا أن الانتهاكات لم تقلّ، بل تتزايد.

وتتمثّل أهمية هذا الخط الساخن في أنه «يستخدم متى تعرّض أيّ صحفي في أثناء قيامه بمهمة للاختفاء: الأسر، أو التوقيف، أو الاحتجاز. ففي حالة الاختفاء تسعى اللجنة الدولية للحصول على معلومات من أطراف النزاع، ومن أيّ مصدر آخر. وإذا أكدت سلطات الاحتجاز (التي قد لا تكون بالضرورة حكومةً) أسر الصحفي، أو إلقاء القبض عليه، أو وفاته، تبلغ اللجنة الدولية هذه المعلومات إلى أسرته، كما يمكن للجنة أن تبلغ السلطات في بلده الأصلي أو نقابة الصحفيين المعنية. أما في حالة الأسر أو الاحتجاز، فتطلب اللجنة الدولية السماح لأحد مندوبيها بزيارة الصحفي بصحبة طبيب إذا استلزم الأمر ذلك، كما تمكن اللجنة الدولية الصحفي وأسرته من تبادل الأخبار العائلية، ومن الممكن أن يتم ذلك من خلال رسائل الصليب الأحمر التي تقوم اللجنة الدولية بجمعها وتسليمها إلى المرسل إليه. وعند إطلاق سراح الصحفي تعيده اللجنة الدولية إلى وطنه إذا لم تقُم جهات أخرى بالوساطة لعمل ذلك.

والحقيقة أن هناك بعض المنظمات غير الحكومية التي لم تجد لحماية الصحفي سبيلاً إلا شارة يعلّقها على كتفه، معتقدةً أنها وسيلة فعالة لحمايته، كما هو الحال مع حملة الشارة الدولية التي شدّدت على أهمية وضع الصحفي شارةً على ذراعه اليسرى تفيد بأنه من الصحافة، وهي تكتب بالإنجليزية: PRESS. فهناك ضرورة لكل صحفي أن يثبت هويته كصحفي عن طريق بطاقة صحفية، أو عبر رسالة اعتماد من وسيلة الإعلام التي يشتغل فيها، لكن الصحفيين عندما يوجدون في مناطق خطيرة يلجؤون -إضافةً إلى ذلك- إلى استعمال شارة

واضحة للعيان توضّح أنهم صحفيون، وليسوا مقاتلين، وهم في تصميمهم تلك الشارة يلجؤون إلى تصميم عدد غير متناهٍ من هذه الشارات التي تختلف باختلاف القارات؛ لذلك يجب أن تحدد شارة موحدة معترف بها دولياً يمكن للصحفيين أن يستخدموها عند الضرورة، كما هو الحال اليوم. وينبغي إيضاح أن هذه الشارة يجب ألا تكون إجباريةً، وأن يبقى استخدامها من اختيار الصحفي أو وسيلة الإعلام التي تشغله؛ لأن استخدام شارة معترف به دولياً يكون مدعوماً قانونياً من الدول الموقعة على المعاهدة، وقد قدمت الحملة الدولية لشارة حماية الصحفي نموذجاً للشارة يتمثّل في دائرة برتقالية اللون بداخلها كلمة (PRESS) باللون الأسود.

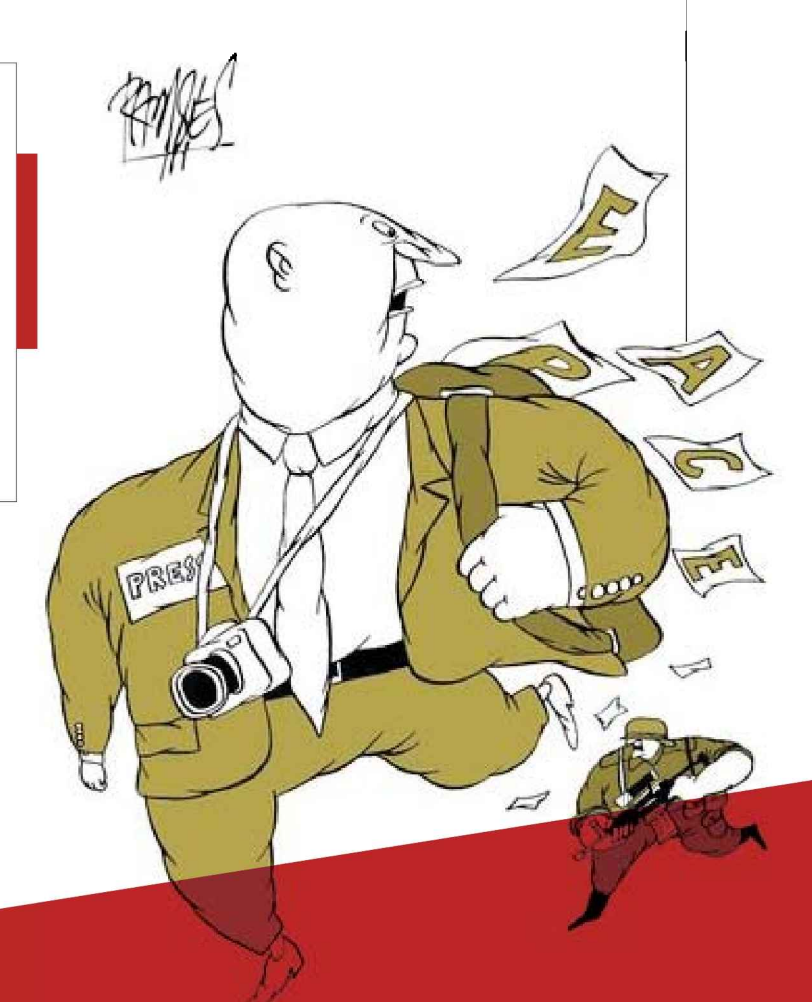
معضلة الحماية القانونية

في المناطق المشتعلة ربما يُقتل الصحفي، أو يصاب بطريق الخطأ، وربما تقع الجريمة من الجانب الجائر الرافض إعلان الحقيقة، وقد تنبّه المجتمع الدولي إلى ضرورة التدخل بوضع مبادئ قانونية لحماية الإعلاميين ضد إجراءات التعسف؛ فينصّ القانون الدولي على أن الصحفيين المدنيين يؤدون مهماتهم في النزاعات المسلحة، ويجب احترامهم وحمايتهم من كلّ شكل من أشكال الهجوم المتعمد، ويؤمن القانون الدولي الإنساني للصحفيين المدنيين الحماية نفسها المكفولة للمدنيين ماداموا لا يشاركون مباشرةً في الأعمال العدائية؛ فطبقاً للمادة ٧٩ من البروتوكول الأول الإضافي لاتفاقيات جنيف عام ١٩٤٩م: يجب احترام الصحفيين المدنيين العاملين في مهام معينة في مناطق نزاع مسلح وحمايتهم ماداموا لا يقومون بجهود مباشرة في الأعمال العدائية. وحسب الاتفاقية يجب حماية هؤلاء ماداموا لا يشاركون فعلياً في الأعمال العدائية، فيحظر استخدام العنف ضدهم، ولاسيما القتل بكل أشكاله والتشويه والمعاملة القاسية والتعذيب، ولا يجوز أخذهم رهائن، أو أن يُعتدى على كرامتهم الشخصية، ويحظر إصدار عقوبات ضدهم من دون محاكمات قانونية تكفل حقوق الدفاع.

دور بعدي!!

تحاول بعض المنظمات بذل قصارى جهدها، لكن هذا الجهد يظلّ منحصراً في مساعدة الصحفيين بعد تعرّضهم للإصابات والاعتقالات، وليس قبل ذلك؛ أي: ليس لها دور في حمايتهم بقدر دورها في إحصاء عدد الضحايا، وفي أحسن الظروف تقوم تلك المنظمات بشجب تجاهل الدول الكبرى للحوادث التي يتعرّض لها الصحفيون.

تكاد حقوق الصحفيين عامةً، وليست حمايتهم فقط، مستمدةً من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بوصفه المرجع الرئيس؛ إذ أشارت المادة (١٩) منه إلى أنه «لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء من دون تدخل، واستقاء الأنباء والأفكار وتلقّيها وإذاعتها بأيّ



وسيلة كانت من دون التقيد بالحدود الجغرافية».

وقّعت معظم دول العالم، والعربية منها ليست استثناءً، على وثيقة الإعلان، وأشارت دساتير معظم الدول العربية إلى حرية الرأي والتعبير؛ أخذاً بما نصّت عليه المواثيق الدولية؛ فطبقاً لهذه الدساتير «للصحفيين حقّ الحصول على الأنباء والمعلومات طبقاً للأوضاع التي يحددها القانون، ولا سلطان عليهم في عملهم لغير القانون».

وعقد مؤتمر (حماية الصحفيين في الحالات الخطيرة) بالدوحة يومي ٢٢ و٢٣ يناير عام ٢٠١٢م بمشاركة نحو ١٥٠ ممثلاً لعدة اتحادات صحفية وجمعيات مدافعة عن حقوق الإنسان وممثلين عن منظمات أممية ودولية وشبكات إعلامية، وناقش المؤتمر مدى جدوى الاتفاقيات والمواثيق وكفاياتها لتقرير حماية فاعلة للمراسلين الإعلاميين، خصوصاً قرار مجلس الأمن رقم ١٧٣٦، الذي أوضح للمرة الأولى أن الصحفيين والمشتغلين بالإعلام والموجودين في مناطق النزاع المسلح سيتم حمايتهم واحترامهم، لكن اصطدم هذا القرار -للأسف- بالبيروقراطية السائدة في الأمم المتحدة، التي رفضت إدانة المسؤولين في جامبيا، وضربت الدول الكبرى بالقوانين والمواثيق الدولية التي تقرّر حماية جنائية للإعلاميين عرض الحائط. وأكد مؤتمر الدوحة ضرورة إصدار معاهدة جديدة لتوفير الحماية القانونية للصحفيين في مناطق الصراعات المسلحة والخطيرة، والنصّ صراحةً على إجراءات قانونية ملزمة من أجل تقرير هذه الحماية، خصوصاً أن هناك عدة وقائع عجزت فيها القرارات والمواثيق الدولية عن إدانة بعض الدول تجاه قتل الصحفيين. وفي تقويم توصيات مؤتمر الدوحة سأل بعض الحضور عن هوية الصحفيين المعنيين الذين تصدق عليهم حقوق الحماية، فهل تقتصر الحماية على مراسلي الحروب المبعوثين من مؤسسات بعينها أو يمكن أن تشمل الصحفيين والمصوّرين الذين لا ينتمون إلى مؤسسات كبيرة؟. كما أن المؤتمر لم يعرّف الحالات الخطيرة، فهل تعني مناطق الحروب والنزاع المسلح أو من الممكن أن تضم أماكن الأوبئة والأماكن المنكوبة بالكوارث الطبيعية، أو من الممكن أن تضم الأماكن التي تعاني فساد أنظمتها، بوصف النظام الفاسد أشد ضراوةً في الفتك بالصحفي وأكثر تهديداً له من وجوده وسط الحروب والنزاعات المسلحة؟.

تتكفّل بعض المنظمات الصحفية كـ(مراسلون بلا حدود) بإعارة معدات مجانية للحماية في أماكن النزاع المسلح



المراجع

(١) حماية الصحفيين في الصراعات المسلحة، ترجمة: ريم الجابي، مجلة معلومات دولية، العدد ٥٧، طبعة ١٩٩٨م.

(٢) وسائل الإعلام والمجتمع، ترجمة: صالح خليل أبو أصبع، عالم المعرفة، العدد ٣٦٨، مارس ٢٠١٢م.

(٣) ملف تفرّدت بنشره مجلة الدوحة في عددها رقم ٥٣، مارس ٢٠١٢، عن (مهنة الصحافة وأخطارها)، ومن أهم المقالات التي وردت به: راجية حمدي، حماية الصحفيين: النوايا الحسنة والواقع الصعب، ومحسن العتيقي، ترسانة البقاء، وهالة العيسوي، إسرائيل تكمم الأفواه، وعلاء عبدالوهاب، العرب ومواثيق الحماية: ملاحظات أولية.

(٤) أمن الصحفيين وأطقمهم وحمايتهم والقانون الدولي الإنساني والتغطية الإعلامية، انظر:
- www.icrc.org و crimesofwar.org.



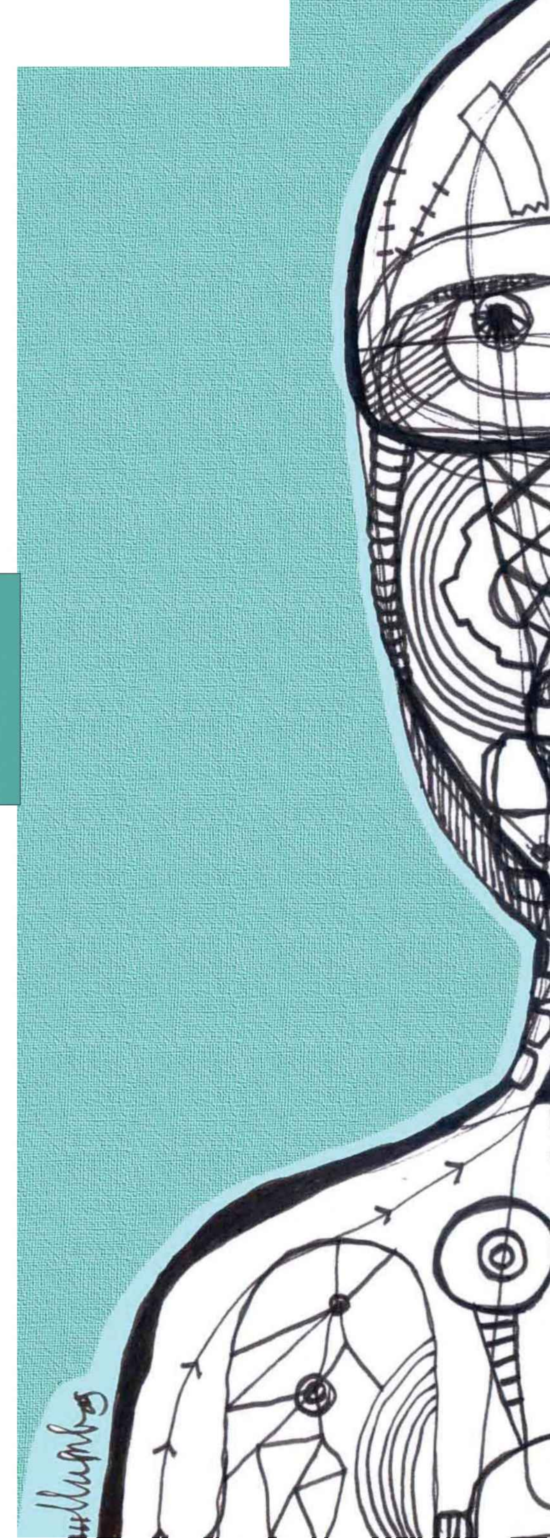
قضية

باتت قضية استنساخ البشر أشد خطورةً في زمن انتشار
فلسفة تسوغ ممارسة إبادة جماعية للتخفيف من حدة
الانفجار السكاني.

شذوذ يفرض نفسه على مائدة البحث مجدداً

خير الدين عبدالرحمن
حلب – سورية

ما كنتُ أرغب في العودة إلى هذا الموضوع بعدما عالجته آخر مرة في مجلة (الباحثون) الشهرية الدمشقية، لكن ما نشرته صحيفة (ديلي ميل) البريطانية في شهر إبريل عام ٢٠١٢م يفرض هذه العودة؛ فقد كشف إحصاء أعده جهاز الخدمات الصحية الوطنية في بريطانيا أوردته هذه الصحيفة أن في بريطانيا نحو عشرين ألف رجل في حالة حمل، ويحصلون على الخدمات الطبية الخاصة بالنساء، وطلبوا الحصول على خدمات الولادة خلال المدة من عام ٢٠٠٩ إلى عام ٢٠١٠م.



وعدّت الصحيفة أن الأشدّ لفتاً للانتباه هو أن سبعة عشر ألف رجل من هؤلاء طلبوا علناً الحصول على الخدمات المخصّصة للحوامل، وزار أكثر من ٨ آلاف رجل من هؤلاء أطباء متخصّصين في أمراض النساء والتوليد. وقد أنجب شاب بريطاني طفلاً بصحة جيدة بعدما كان قد أجرى عملية جراحية لتهيئته للحمل.

إنسان حيواني

تشعبت أبحاث الهندسة الوراثية وتجاربها وتطبيقاتها في الحقول شتى، وجاءت عدة إعلانات متلاحقة عن نجاح في استنساخ بشر، أو عن تصنيع أصناف جديدة من (إنسان حيواني) أو (حيوان مؤنسن)؛ لتثير الجدل والنقاش طويلاً. لا

يبدو أن مثل هذا التوجه خاصةً من توجّهات الهندسة الوراثية وإنجازاتها الإيجابية والسلبية يحتمل مروراً عابراً أو إشاحةً إلى ما قد يبدو أكثر إلحاحاً وسخونةً من مسائل ذات تأثير يومي مباشر. ويزيد من الحاجة إلى مزيد من التمعن في توجهات إنجازات الهندسة الوراثية هذه ارتباطها الوثيق بما شهده عالمنا في العقود الأخيرة من انقلابات في القيم، وقواعد السلوك، ومناهج الحياة، وعلاقات المجتمعات والدول.

باتت قضية استنساخ البشر أشد خطورةً في زمن انتشار فلسفة تسوّغ ممارسة إبادة جماعية للتخفيف من حدة الانفجار السكاني. وصارت القضية أكثر جدلاً وإلحاحاً عندما وقفت الطبيبة الفرنسية بريجيت بواسيلييه يوم ٢٠٠٢/١٢/٢٨م، نيابةً عن شركة كلونايد المرتبطة بالرائيليين، في مؤتمر صحفي عقدته في فلوريدا الأمريكية، بينما تدلّت نجمة داود السداسية؛ شعار الصهيونية وكيانها الاستيطاني في فلسطين، وشعار الطائفة الرائيلية التي تنتمي إليها تلك الطبيبة، من قلادة في عنقها؛ لتعلن نجاح أول عملية استنساخ بشرية بولادة طفلة لأم أمريكية تمّت في اليوم السابق بعملية قيصرية. حضر ذلك المؤتمر الصحفي الاحتفالي أقطاب تلك الطائفة، خصوصاً نبيّها المزعوم الذي أسّسها عام ١٩٧٠م الفرنسي كلود فوريلون، الذي قرّر تسمية تلك الطفلة (حواء). لكن خالة كلود أعلنت في اليوم التالي مباشرةً أنها قد شاركت أمه في تربيته وتنشئته، وأن كلود ليس مستنسخاً من مخلوق فضائي كما زعم وأقنع أتباعه، بل هو ابن غير شرعي ليهودي كان عشيقاً لأختها ثم تركهما.

استخدمت الطبيبة الرائيلية كلمة (خلق) مراراً في مؤتمرها الصحفي، قائلةً: «لقد خلقتها أنا»، وكرّرت القول: «نعم، أنا خلقت هذه الطفلة». تدفّق سيل من التشكيك والاستنكار والإدانة، وتعليقات مختلفة على الأثر؛ تصديقاً لما توقّعه آنذاك رئيس تحرير مجلة (علم وحياة) الباريسية فور ذيوع الخبر من أن هذا -إن صحّ- فسيكون زلزالاً يزلزل العالم، لا مجرد خبر. لم تلبث الطبيبة أن أعلنت من دون ظهورها عن ولادة ثانية، ثم ثالثة، عن طريق وسائل إعلامية متعددة. وتضم تلك الطائفة التي تأسّست عام ١٩٧٠م عدداً من العلماء والأطباء ورجال الأعمال وغيرهم، وانتشر أتباعها في كندا والولايات المتحدة الأمريكية وبلدان أخرى، وهم يؤمنون بأن الجنس البشري جاء أصلاً نتيجة استنساخ قامت به مخلوقات فضائية حطّت على الكرة الأرضية قبل خمسة وعشرين ألف سنة في مهمة مقدسة.

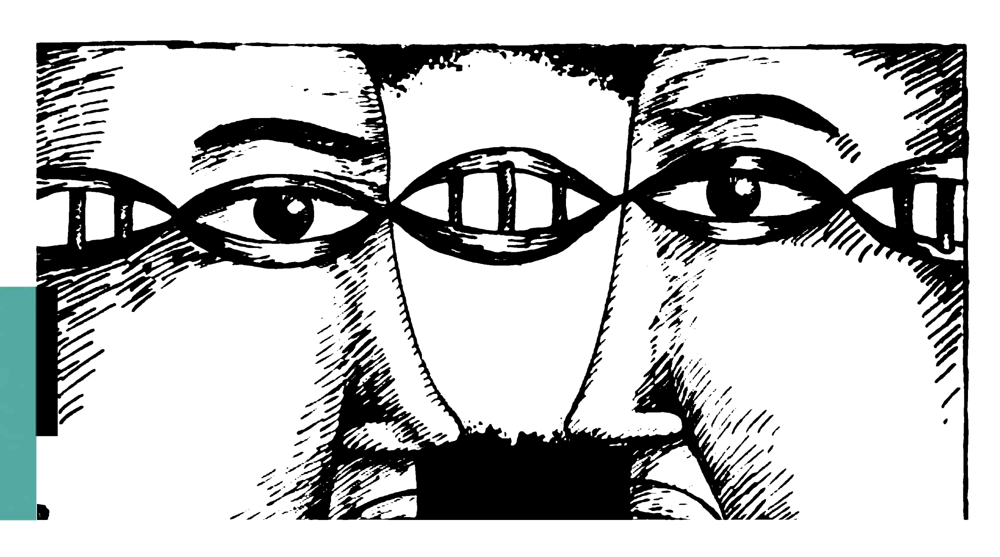
قوننة الانحرافات السلوكية الخطيرة، في مقابل جائحة متصاعدة تهاجم الالتزام، تتشكّل حلقات متتالية في سلسلة طويلة يترتب عليها وينجم عنها تدمير بنيوي للمجتمع والفرد

صراع الاستنساخ

كان طبيب إيطالي اسمه سفرينو آنتنوري قد أعلن قبل ذلك بفيض من التباهي والخيلاء والتحدي أن أول جنين بشري مستنسخ تتم ولادته سيكون أحد أجنته الخمسة الذين يشكّلون أول مجموعة بشرية أشرف على استنساخها، وحدد آنذاك مطلع يناير من عام ٢٠٠٣م موعداً لذلك الحدث التاريخي -كما قال- عندما تضع امرأة الجنين الأول في بلد رفض تحديده. رد بانايوتيس مايكل سافوس، وهو شريك سابق للطبيب الإيطالي في أبحاثه وفي تجارب تلقيح صناعي سابقة أجراها، متحدياً ومتهماً الطبيب الإيطالي بالكذب، وأوضح أنه جمع خلايا من سبعة أشخاص رغبوا في استنساخ أنفسهم، وأنه سوف يحقّق المحتوى الوراثي لتلك الخلايا في بويضات بشرية نسائية مفرّغة من محتواها الوراثي، وأكد أنه سوف يقدم قريباً دليلاً

من الأحماض الأمينية DNA ليبرهن على تطابق الأطفال المستنسخين مع الأشخاص الأصليين الذين استنسخوا عنهم[1]. لكن الطبيبة الفرنسية الرائيلية بريجيت بواسيلييه عاجلت هذا الطبيب وشريكه السابق مدّعيةً انتصارها هي؛ إذ سبقتهما بإعلان نجاحها في استنساخ أول طفلة من أصل خمسة أجنة قالت: إنها تشرف على استنساخها، وتعمدت أن تعلن هذا قبل أيام قليلة من الموعد الذي حدده الطبيب الإيطالي، وكذلك قبل الموعد التقريبي الذي أعلن عنه منافسه وغريمه.

خفّت حدة الجدل والنقاش الواسعة التي فتحها إعلان المرتبطة بالرائيليين متهمةً أمام محكمة في ولاية فلوريدا، وقالت: «الطفلة المستنسخة (حواء) موجودة في إسرائيل؛ لأن ولادتها (وكذلك كلّ مراحل تصنيعها) تمّت هناك»، وأكدت هذه الطبيبة أن تلك الطفلة لم تكن يوماً في ولاية فلوريدا، أو في أيّ ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية، مع أنها هي نفسها قد أعلنت عن ولادتها في فلوريدا. وقالت الطبيبة للمحكمة: إنها لم ترَ تلك الطفلة قط بشكل مباشر، وإنما وصفتها في المؤتمر الصحفي اعتماداً على مشاهدة أفلام فيديو ظهرت الطفلة فيها. عندئذٍ قرّر القاضي الأمريكي إغلاق الملف، وإسقاط القضية؛ لأن الوقائع لم تتم في الولايات المتحدة الأمريكية، وإنما تمّت خارج نطاق أهليته الجغرافي. هنا كان واضحاً أن قرار القاضي جاء نتيجة عبث بالمعطيات، وتزوير وقائع، وتحايل على نصوص القانون وجوهره. في اليوم نفسه، صرّح كوبي دوري -الناطق



أعلن بيير كريستيان فوس -وزير المالية في النرويج - زواجه رسمياً من صديقه بعد علاقة شاذة جمعتهما معاً

الطبيبة الفرنسية الرائيلية حتى بعدما افتضح كذب كثير من ادعاءاتها، وكذلك ادعاءات بعض من زعموا مثل زعمها، لكن اللافت للنظر هو تقاطع مواقع إجراء ما قيل: إنه استنساخ بشر، وفقاً لما نُشر أو تسرّب أو اكتشف آنذاك في فلسطين المغتصبة؛ مما جعل السؤال أكثر إلحاحاً عن الهدف الحقيقي لتلك الظاهرة وما وراءها، وعن انتماء سدنتها.

عبث وتزوير

في يوم ٢٠٠٣/١/٣٠م؛ أي: بعد شهر ويومين من مؤتمرها الصحفي، وقفت بريجيت بواسيلييه بوصفها رئيسة شركة كلونايد بلسان وزارة الأديان في الكيان الصهيوني- للإذاعة الإسرائيلية بأن الطفلة دخلت مطار اللد بطريقة شرعية عقب تحريك دعوى قضائية ضد الطبيبة في ديسمبر ٢٠٠٢م من دون تحديد يوم، وقال الناطق الديني: إن القانون لا يسمح بالاستنساخ، لكنه لا يمنع دخول المستنسخين[2].

إن البحث المتعمق، والتدقيق الشديد في الجهات والعوامل والفلسفة التي تقف خلف جهود هذا الاستنساخ، مسألة بالغة الإلحاح والأهمية. أما التركيز في التفاصيل التقنية، أو التقويم الفقهي، أو التوقعات المحتملة، أو العواقب الأخلاقية والاجتماعية والقانونية والاقتصادية والثقافية المترتبة على ظاهرة استنساخ

البشر، من دون كشف من هم وراءها، والمقصود فعلاً منها يسهم في تضييع الحقيقة، أو اختزالها وتشويهها على الأقلّ.

ما كان لتباهي الحضارة المادية السائدة بما حققت من إنجازات كثيرة أن يحجب المخاطر الهائلة المتوالدة التي تتهدد البشرية نتيجة تزايد انتشار الفساد بمواكبة تلك الإنجازات، وأحياناً نتيجة لها، بل إن بعض مخاطر ذلك الفساد تفوق ما تراكم من إنجازات إيجابية مبهرة في حالات كثيرة.

انتحار جماعي

لقد بيّن الله -عزّ وجلّ- دور الفساد التخريبي بعدما خلق الإنسان في أحسن تقويم؛ إذ قال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١). راح الفساد يستفحل ويستشري جيلاً بعد جيل؛ ليبلغ تخوم التدمير الذاتي الشامل للحياة البشرية،

> بحث كثيرون فيما تسببت به الحضارة المعاصرة من إخلال هائل في التوازن البيئي، لكن الحاجة أكثر إلحاحاً إلى التوقف عند التصحر الأخلاقي القيمي

أو لنقل: الانتحار الجمعي للناجين من احتمالات الموت بأسلحة الإبادة الجمعية التي تمضي الحضارة المادية المعاصرة في تطويرها ونشرها، بل إن عدة أوساط في القوى الدولية المهيمنة جاهرت بضرورة التخلص من أمم بأسرها، أو من أغلبية مجتمعات عدّتها فائضاً بشرياً متخلفاً مستهلكاً من دون إنتاج يتناسب مع استهلاكه. لقد انتشرت عدة مدارس فكرية تفلسف هذه الإبادة الجمعية التي عرف العالم سوابق لها على أيّ حال في إقدام الاستيطان الأوربي الأبيض فيما سُمِّي لاحقاً القارة الأمريكية على إبادة شعوب البلاد الأصلية من المايا والإنكا والأزتيك وغيرهم، وكذلك إقدام الاستيطان الأوربي -البريطاني أساساً- على إبادة

الأبوريجيين سكان أستراليا الأصليين، وإبادة الماوريين سكان نيوزيلندا الأصليين، بدرجة أقلّ. كرّر الاستيطان اليهودي الذي أفرزه الغرب، وتبنى غزوته واغتصابه فلسطين وحماهما، وتعامى عن ممارستها الإبادة الجمعية في فلسطين، وارتكابها مجازر متلاحقة بحق شعبها، إضافةً إلى اقتلاع ثلثي الشعب الفلسطيني بالقوة، وتشريد أغلبيته في المنافي منذ عام ١٩٤٨م، فضلاً عن القتل الجماعي الذي تعرّض له شعبا أفغانستان والعراق على امتداد العقد الأول من القرن الحادي والعشرين.

كان أحد مسوّغات الحروب على مدى قرون هو عدّ الحرب نشاطاً اجتماعياً مشروعاً، بل حيوياً، يشكّل إطاراً لتنشيط عملية (الاصطفاء الطبيعي) وتنظيمها؛ تلك العملية التي زعمها إفك داروين قانوناً طبيعياً يجعل البقاء للأصلح، وبعبارة أدق وفقاً لممارسات الغرب: البقاء للأقوى. هكذا أوغل محتكرو القوة في امتهان باقي البشر، ونهبهم، واستعبادهم، حتى إبادتهم. ورافق الإخلال بالقوانين الفطرية للحياة الإنسانية، وقيم جعلتها الشرائع السماوية إطاراً لتعامل البشر فيما بينهم، تجاوز حدود وضعها الخالق لتعامل الإنسان مع الطبيعة أرضاً وبحراً وسماءً وما فيهن بعدما خلق كل شيء بقدر، وعصياناً لتحذيره: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٨، ٩).

> تباهي الحضارة المادية السائدة بما حققت من إنجازات لم يحجب المخاطر التي تتهدد البشرية

تصحر أخلاقي

بحث كثيرون فيما تسببت به الحضارة المعاصرة من إخلال هائل في التوازن البيئي، الذي يعاني البشر جميعاً اليوم آثاره المتفاقمة على صعد مختلفة من اضطرابات مناخية، وأوبئة غير مسبوقة، ومزيد من التصحر والمجاعات والكوارث، لكن الحاجة أكثر إلحاحاً إلى التوقف عند التصحر الأخلاقي القيمي؛ فهذا أشد تخريباً، وأكثر تدميراً للبشرية قاطبةً، لا لضحاياه المباشرين فحسب. وهنا لا تستطيع الحضارة المادية السائدة بإنجازاتها العظيمة، وابتكاراتها واختراعاتها الكثيرة، أن تمحو الآثار المتوالدة لما أفرزته وتسبّبت به من كوارث على امتداد العالم؛ إذ يكاد حجم الفساد المتفاقم والمستفحل يبلغ تخوم انتحار جمعي، لا بأسلحة دمار شامل تتابع قوى الحضارة المادية تطوير المزيد منها وإنتاجه فحسب، وإنما باستهداف أمم بأسرها عبر وسائل أخرى بعدما عدّتها تلك القوى المهيمنة مجرد هباء، أو كائنات مستهلكة ضارة، ورأت وفقاً لمنطق السوق أن التخلص من تلك الأمم مشروع، بل ضروري.

لقد تعددت وسائل الإبادة الجماعية التي تم استخدامها ضد أمم ومجتمعات كثيرة في العالم، إلا أن التدمير القيمي والإفساد الأخلاقي -سواء أكانا مصمّمين لاستهداف أمم الجنوب أم كانا مصمّمين ليبدأا انتشارهما من أصحابهما، ثم تنتقل عدواهما إلى سائر الأمم بزعم أنهما من الإنجازات الحضارية- هما أشد فتكاً من أسلحة الإبادة الجماعية المادية. نقف مثلاً عند نماذج تشريعات ومسلكيات تعكس مدى الانهيار الذي بلغه التعامل فيما بين البشر، ونتمعن في جذور التدهور المتزايد الذي يهدد العلاقات الإنسانية والمجتمعية ودوافعه، والذي يُراد تسويقه ضمن منظومة أوسع نطاقاً إلى باقي المجتمعات معياراً للتحضر؛ ففي منتصف شهر يناير عام ٢٠٠٢م أعلن بيير كريستيان فوس -وزير المالية في النرويج، البالغ من العمر اثنين وخمسين عاماً- زواجه رسمياً من صديقه يان إيريك كنار باك -المدير في مجموعة شيبستد النرويجية للإعلام- بعد علاقة شاذة جمعت الرجلين طويلاً في شقتهما بحي فروجنر في العاصمة النرويجية أوسلو. جاء إعلان الوزير النرويجي تباهياً في تصريح نشرته صحيفة داجنس نايرنجسليف اليومية يوم ٢٠٠٢/١/١٥م، فأكد ما تردّد من شائعات بهذا الخصوص قائلاً: إنه عقد مراسم زواجه على صديقه فعلاً في الرابع من ذلك الشهر في السفارة النرويجية

باستوكهولم عاصمة السويد بعد سنوات طويلة من ممارستهما الزواج عملياً[٣]. كانت النرويج قد أصبحت في عام ١٩٩٣م ثاني دولة -بعد السويد- تبيح رسمياً الزواج المثلي؛ رجلاً برجل، أو امرأة بامرأة، بحقوق الزواج الطبيعي نفسه، على الرغم من معارضة بعض أساقفة الكنيسة اللوثرية. قبل ذلك الزواج بشهور قليلة لحقت هولندا بمن سبقتها من دول أوربية أباحت حكوماتها وبرلماناتها زواج الشواذ رسمياً؛ فقد دخل حيز التنفيذ في الدقيقة الأولى من يوم ٢٠٠١/٤/١م قانون هولندي سمح بزواج المثليين؛ أي: زواج رسمي بين امرأة وامرأة، أو بين رجل ورجل، وينظم هذه العلاقة الشاذة بما يترتب عليها من حقوق مالية واجتماعية ومعنوية، بل يسمح للشواذ المتزوجين بتبنّي أطفال أيضاً. لم يبدأ تنفيذ هذا القانون في صمت، أو على استحياء، وإنما جاءت البداية في احتفال رسمي كبير أقيم في قاعة المجلس البلدي في العاصمة أمستردام تمّ فيه تزويج امرأة من امرأة، وتزويج ثلاثة رجال من ثلاثة رجال، ونقلت شاشات التلفزة وقائع الحفل مباشرةً، كما نشرت الصحف صور هؤلاء الشواذ يقطعون قالباً ضخماً لحلوى العُرس الجماعي هديةً من بلدية أمستردام. أكثر من هذا، فإن جوب كوهين -رئيس تلك البلدية آنذاك، ورئيس حزب العمل الذي كاد يصبح أول رئيس وزراء يهودي لهولندا عندما فاز حزبه بأكثرية مقاعد البرلمان في انتخابات يوم ٢٠٠٣/١/٢٢م- وقف مخاطباً المحتفلين بعدما صادق رسمياً على عقود الزواج قائلاً: «إنكم تكتبون تاريخاً بزواج امرأة من امرأة، ورجل من رجل. إنه أمر فريد في العالم». أما إيفرت جوزينج -رئيس إدارة تسجيل العقود في أمستردام- فقد توقّع أن تتم عشرة آلاف حالة زواج من هذا النوع بين الشواذ في كل عام؛ أي: ١٠٪ من متوسط عدد حالات الزواج السنوي الكلي.

حرية الانتحار

جاء معظم هذه القوانين والتشريعات لتقنين أمر واقع بعد استفحاله في الغرب، مثلما كان أمر القانون الذي أباح تعاطي المخدرات وحيازتها بكميات معقولة لحاجة الاستهلاك الشخصي، والقانون الذي أصدرته وزيرة الصحة الهولندية بعد عشرة أيام من نفاذ قانون زواج الشواذ بإباحة حرية بيع عقار حبوب الانتحار وتداوله لتسهيل ممارسة الناس حقهم في الانتحار. وقبل يومين من ذلك، أقرّ البرلمان الهولندي يوم ٢٠٠١/٤/١٠م قانون السماح بالقتل الرحيم، الذي أباح للأطباء إنهاء حياة مرضى يرون استعصاء شفائهم. وتنضم هذه التشريعات، وما داناها وماثلها، إلى كثير مما قد تمّ فرضه ونشره في بلدان الشمال، ثم تسريبه، بل فرضه، في بلدان الجنوب من انحراف سلوكي وانحلال خلقي. نكتفي بما تحقق مثلاً على طريق تعميم تعرية أجساد النساء، وتطبيع هذا السلوك على امتداد العالم، وزعم أن التعرية شرط لا غنى عنه للتحضّر، ودليل عليه، بعد أن كان الاحتشام في الملبس سمةً سائدةً حتى لدى نساء أوربا وأمريكا إلى ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية التي احتفل مصمّمو الأزياء، وكان جلّهم من اليهود والمتهودين،

بعد عشرة أيام من نفاذ قانون زواج الشواذ أبيحت حرية بيع عقار حبوب الانتحار ثم قانون السماح بالقتل الرحيم

بانتهائها عبر إطلاق لباس سباحة نسائي موغل في الفحش كبداية؛ لتتلاحق بعد ذلك موجات دائبة لنشر العري وتعميمه سلوكاً طاغياً؛ فقد نقلت وسائط الإعلام آنذاك قول الماسوني الصهيوني أرنولد ليز: «إن أمنيتنا هي خلق مجتمع يكون أعضاؤه أحراراً جنسياً. نريد خلق الناس الذين لا يخجلون من تعرية أجسادهم تماماً أمام بعضهم بعضاً في الأماكن العامة». لقد قاومت معظم المجتمعات هذه الجائحة، لكن كثيراً من قلاع المقاومة تهاوت، وقدمت قناة التلفزة الفرنسية الخامسة مثلاً برنامجاً عن استشراء الإباحية الجنسية في القنوات التلفازية أعادت فيه عرض لقطات مقابلة تمّت قبل

العددان ٤٤١ - ٤٤٢ / الربيعان ١٤٣٤هـ

نحو خمسين عاماً لمذيعة تلفازية فرنسية كشف ثوبها النصف الأسفل من ركبتيها، فصدر قرار إدارة التلفاز في اليوم نفسه بطردها من العمل بسبب ثيابها الفاضحة، وعلّق مقدم البرنامج بأن مذيعةً ترتدي مثل هذه الثياب اليوم ستُفصل من عملها من دون نقاش؛ لأنها ثياب موغلة في الرجعية.

تدمير بنية المجتمع

إن قوننة الانحرافات السلوكية الخطيرة، التي يتم نشرها وفرضها في معظم المجتمعات، في مقابل جائحة متصاعدة تهاجم الالتزام الديني، وتحاول تشويه قيمه، واضطهاد أهله، على نحو ما تشنّه موجة العداء الأعمى المفتعل للإسلام (الإسلاموفوبيا) اليوم من حرب شرسة متصاعدة، تشكّل حلقات متتالية في سلسلة طويلة يترتب عليها وينجم عنها تدمير بنيوي للمجتمع والفرد على حدّ سواء. المسألة ليست حالة معزولة شاذة لأفراد من الشواذ، بل هي إفراز سلبي لحضارة مادية ينسجم مع ما سبقه، ويمهّد بدوره لإفرازات متوالدة لاحقة من القبيل نفسه تنتشر أفقياً وعمودياً وزمنياً. نأخذ مثلاً حالة (الرجل الحامل)، ولسنا نتحدث هنا عن الفلم السينمائي الذي كان بطله أرنولد شوارزينجر -حاكم ولاية كاليفورنيا الحالي- ومثّل فيه دور رجل أنجب طفلةً من عملية زرع بويضة ملقحة في بطنه، وإنما نتحدث عن تجربة واقعية رعتها مؤسسة جينوشويس الأمريكية المتخصّصة في تطوير التناسل البشري لإنجاز عملية حمل حقيقي في بطن رجل تايواني الأصل يقيم بمنهاتن في نيويورك، اسمه لي مينغ وي. شغلت هذه التجربة كثيرين منذ أعلنت مؤسسة جينوشويس عن إنجاز شوط كبير لإنجاح عملية الحمل تلك. وخلاصة هذه التجربة أنه تم انتزاع بويضة من امرأة لا علاقة لها بذلك الرجل الذي جرى حقن دمه بهرمونات أنثوية أعطيت له بجرعات كبيرة لتهيئة جسده للحمل، ووضعت البويضة في التجويف البريتوني في بطنه بعدما تمّ تحويله إلى ما يشبه الرحم، وتمّ زرع مشيمة وجنين في تجويف الرجل البطني تحت الغشاء البريتوني مباشرةً. توقف ذلك الرجل الحامل عن تناول الهرمونات الأنثوية عندما قرّر الأطباء الذين يتابعون حالته أن الحمل أخذ مساره الطبيعي. استخدم الفريق الطبي فعلاً كلمة الطبيعي وصفاً لمسار هذا الحمل الذي لا علاقة له بالطبيعة، ثم راح الأطباء المشرفون على حمل ذلك الرجل في مشفى هامر سميث يصدرون تقارير دورية عن متابعتهم نمو الجنين. سوّغ الرجل الحامل خضوعه لهذه التجربة متذرّعاً لوسائل الإعلام بأن عمدة نيويورك آنذاك -اليهودي الشهير جولياني- ظهر في برنامج تلفازي اسمه (سهرة السبت) مرتدياً ملابس نسائية؛ مما شجّعه على خوض التجربة. وتباهى الرجل الحامل لاحقاً في تصريح نشرته مجلة (بيبر فينس) بأنه امتاز من رجال الكون جميعاً باستمتاعه بمشاعر الأمومة. وكرّر هذا الرجل نفسه التجربة بعد عدة سنوات.

حالة أخرى لرجل أمريكي، اسمه سكوت مور، تحوّل جنسياً وهو في الثلاثين من عمره، وتزوج بدوره من رجل آخر متحوّل جنسياً أيضاً، اسمه توماس؛ فكلّ منهما كان أنثى، ثم خضع في مرحلة المراهقة لعمليات جراحية للتحول إلى ذكر. ظلّ سكوت

محتفظاً بشهادة ميلاده وأوراقه الثبوتية التي تجعله أنثى في نظر القانون الأمريكي؛ مما سمح له بالزواج من توماس الذي قام بتسجيل تحوّله من أنثى إلى ذكر قانونياً. قال سكوت مور: إنه سيبادر إلى تسجيل تحوّله عندما يضع جنينه.

ما الحاجة؟

لقد تعلّمنا أن الحاجة أم الاختراع والابتكار، فما الحاجة التي تجعل تلك الشركة والأطباء الذين استخدمتهم يخوضون تجربة بهذا المستوى من العبث في جوهرها ودافعها؟!. حتى لو تغاضينا عن الاعتبارات الأخلاقية والدينية، واكتفينا بالمعيار المادي الذي يحكم السلوك والتطور والعلاقات في مجتمع الحضارة الغربية السائدة، فإن العالم لا يعاني شحاً في عدد النساء المؤهلات للحمل والولادة بطبيعتهن لكي يتذرع أحد باستمرار الحياة البشرية مسوّغاً لتحويل رجل إلى حالة حمل



أوساط في القوى الدولية المهيمنة جاهرت بضرورة التخلص من أمم بأسرها، أو من أغلبية مجتمعات عدتها فائضاً بشرياً متخلفاً مستهلكاً

مفتعل، بل على العكس يضج أصحاب النفوذ في الغرب بالشكوى من مخاطر الانفجار السكاني، ويلقون باللائمة على مجتمعات الجنوب، فماذا وراء هذا العبث؟. لا جواب يقبله عقل سوى أن الشيطان زيّن لهؤلاء ما كانوا يعملون؛ فهو القائل: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر: ٣٩، ٤٠)، وإلا فأيّ نفع يعود على البشرية من مثل هذه التجربة؟! وما ضرورة تجنيد الأطباء والمشافي ومراكز البحث لاستخدام جسد ذكر لوظيفة أنثوية بتحويل بطنه إلى ما يشبه رحم أنثوي، أو بما يماثل حاضنة اصطناعية، سوى أن الأمر خضوع لتخريب جديد يمارسه القائل: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ

نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۞ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ﴾ (النساء: ١١٨، ١١٩)؟!.

سر الكائن الغريب

تحدثت وسائط الإعلام قبل عقدين من الزمن عن مشاهدة كائن عجيب الشكل، ضخم الرأس، مرعب الهيئة، قويّ البنية، دقيق القوائم، سريع الركض، يمثّل خليطاً من بشر وحيوان، استطاع أن يسبق سيارات طاردته آنذاك. أثار تكرار النبأ معزّزاً بالصور رعب سكان عدة ولايات أمريكية شوهد ذلك الكائن متنقلاً فيها. بعد مدة، وفي غمرة الحيرة وتضارب الاحتمالات، اعترف مسؤول في أحد مراكز أبحاث الهندسة الوراثية الأمريكية أن ذلك الكائن هرب من الحجز لديهم. لم يُضفْ أحد شيئاً، فاستمر اللغز يولّد أسئلة متلاحقة: هل هو حيوان له شيء من مظهر البشر تم العثور عليه في غابة كما زعم بعضهم، أو هو نتاج مخبري لعملية استنساخ بشري لم تحقق ما يكفي من النجاح؟. بعد مدة من التعتيم الشديد على تلك القضية، وعلى عدة أنشطة ممهدة لاستنساخ بشر، تناقلت الأنباء في الأسبوع الثاني من شهر مارس ٢٠٠١م أن مئة متطوع التزموا الخضوع لتجارب استنساخ أطفال ينفّذها علماء أمريكيون وإسرائيليون سوف تجري في الشرق الأوسط بعدما منعت السلطات الأمريكية إجراءها على الأرض الأمريكية. فثار السؤال مجدداً: أيّ إنتاج يستهدفه هذا المشروع؟ وما الهدف منه؟. إذا كان العلم قد حقّق نجاحاً محدوداً في استنساخ حيوانات، وتهجين نباتات، ثم ظهرت مخاطر هائلة تهدد صحة البشر ناجمة عن هذه المنتجات؛ إذ تجاوز الأمر الشكل إلى الجوهر والتبعات والانعكاسات؛ فإن الانتقال إلى إنتاج البشر مخبرياً يمثّل إغراقاً في الغيّ. وتتجاوز المسألة اكتشاف الآلية الطبيعية لانقسام الخلايا وتقليدها لتقف عند تخوم لغز خاضع لقانون إلهي: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥).

اليابان والجيش الآلي

استذكرنا مثلاً تجربة تقنية عسكرية يابانية عمرها نحو ربع قرن لدى محاولتنا تفسير الإلحاح على إنتاج مخبري للبشر. خلاصة تلك التجربة اليابانية أن الهزيمة العسكرية الأمريكية في فيتنام جعلت القادة اليابانيين يواجهون مأزقاً غير مسبوق؛ فالولايات المتحدة فرضت قيوداً شديدة تمنع تجديد البناء العسكري لليابان منذ استسلامها عقب إلقاء قنبلتين نوويتين أمريكيتين في أغسطس عام ١٩٤٥م على مدينتي هيروشيما وناجازاكي، فاضطرت اليابان إلى الاكتفاء بالاعتماد أساساً على حماية القواعد والأساطيل الحربية والمظلتين الجوية والنووية الأمريكيتين. لكن التذمر الشعبي الياباني تصاعد ضد الوجود العسكري الأمريكي؛ لما يمكن أن يجرّه من ويلات على الشعب الياباني الذي احترقت أطرافه بنيران حربين عظميين خلال ربع قرن فقط، مثلما تضعضعت بنيته النفسية والمجتمعية بعد تكرار هزيمة اليابان في هاتين الحربين. تصاعد التذمر أكثر من الانحرافات السلوكية والأخلاقية للعسكريين الأمريكيين بما يصدم ويؤذي القيم التربوية والأخلاقية اليابانية. وجاءت الهزيمة الأمريكية في فيتنام، فصار على اليابان أن تستعد لاحتمالات المواجهة العسكرية مع الصين أو الاتحاد السوفييتي السابق باعتماد أقلّ على الحماية الأمريكية. كان أحد الحلول ابتكاراً يتحايل على القيود الأمريكية والدولية من ناحية، ويراعي النكوص الشعبي الياباني عن قبول الدخول في حروب جديدة من ناحية ثانية؛ إذ أظهر استطلاع رأي أجرته شركة دين تسو -كبرى شركات الإعلان اليابانية- عام ١٩٩١م مثلاً أن ١٠٪ من اليابانيين فقط على استعداد للقتال دفاعاً عن بلادهم، في مقابل ٨٠٪ من الكوريين الجنوبيين. توخّت القيادة اليابانية أن يعزّز الابتكار المطلوب قدرة اليابان الذاتية على مواجهة القوات السوفييتية بشكل خاص، التي تحتل عدداً من الجزر اليابانية منذ الحرب العالمية الثانية، وقوات الصين التي تنازع بدورها اليابان على جزر أخرى، ناهيك عن قوات فيتنام وقوات كوريا الديمقراطية؛ إذ لم تنسَ الصين وفيتنام وكوريا -ولم تغفر- احتلال اليابان أراضيها والمجازر التي ارتكبتها. جاء الابتكار الياباني جيشاً آلياً من ستة ملايين جندي آلي (روبوت)، ومثّل عنوان استثمار بارع للتكنولوجيا المتفوقة، وتحاشياً للاستخدام التقليدي للعنصر البشري وما يرافقه من

خسائر وإصابات. قامت الخطة اليابانية على استخدام هذا الجيش الآلي ضد القوات السوفييتية، وتمّت برمجة المقاتلين الملايين الستة لأداء كلّ مهام جيش يخوض حرباً كبرى متكاملة، فهل يمكن تفسير المضيّ في عمليات الاستنساخ شبه البشري بمحاولة لحلّ مأزق تاريخي يعيق تنفيذ طموحات الهيمنة وبرامجها من خلال إنتاج أصناف بشرية مبرمجة بأعداد هائلة وقدرات خارقة مثلما أنتجت اليابان جيشاً آلياً؟!.

نظرية المليار الذهبي

لم يعُدْ سراً وقوف صهاينة خلف نظريات سوّغت إبادة أمم متخلّفة؛ تسهيلاً لازدهار أمم الغرب المتحضرة، كما في نظرية (المليار الذهبي) الداعية إلى إبادة (النفايات البشرية) و(فوائض البشر) التي تستهلك أكثر مما تنتج؛ ليتم توفير موارد الأرض للنخبة التي تستحق البقاء والتقدم والارتقاء؛ أي: لمصلحة مليار إنسان يشكّلون المجتمعات الغربية وامتداداتها الحضارية. ويلتقي الإصرار على محاولات استنساخ بشري وإنتاج بشر يتمتعون بقدرات وصفات خارقة في إطار مشروع هيمنة مجنونة على العالم. وكشف بعض علماء الهندسة الوراثية والتقنيات البيوتكنولوجية أن جوهر هذا الإنتاج هو حقن خلايا بشرية بخصائص وراثية لأسد مثلاً إن كان المراد قوة خارقة، أو بالخصائص الوراثية لنمر أو فهد إن كان المطلوب سرعة الوثب والقفز وتفوّقاً في الافتراس، أو بالخصائص الوراثية لثعلب إن كان المطلوب دهاءً خارقاً وخبثاً، أو لأفعى أو غير ذلك. ويمكن عكس الأمر؛ أي: حقن خلايا حيوانية لأسد أو نمر أو دبّ أو حوت بخصائص وراثية بشرية، ومن ثَمّ لن تكون تلك الأصناف -إذا تمّ إنتاجها- بشرية ولا إنسانية. كما أن الشك كبير في إمكانية ضمان سيطرة تلك القوى والمجموعات المهيمنة الساعية إلى هذا الإنتاج العابث على ما تنوي إنتاجه لاستخدامه على نطاق واسع، أو على نطاق محدود، في تعزيز هيمنتها مهما أحكم المبرمجون برمجتهم.

هوّن جريجوري ستوك قلل في كتابه (إعادة تصميم البشر) من المخاوف المتزايدة إزاء احتمالات تطوير (روبوت) أو (عقل إلكتروني) أشد ذكاءً من الإنسان؛ إذ تسيطر الاختراعات على مخترعيها، وتستعبد الابتكارات مبتكريها. لكن هذا الكتاب توقّع في الوقت نفسه تحولاً أكثر عمقاً وأهميةً للبشر ينجم عن التقدم السريع في مجال الاستنساخ والجينات، بما يحقق ما أشرنا إليه من إنتاج بشر خارقين بخصائص حيوانية فائقة القدرة مثلاً، أو إنتاج حيوانات لها خصائص بشرية جسدية أو سلوكية أو فكرية محددة.

نختم موضوعنا بالإشارة إلى خبر نشرته صحف ومجلات أمريكية وبريطانية عن حاكم عربي (مزمن) سابق دفع قبل الإطاحة به حفنةً من ملايين الدولارات لاستنساخ نسخة منه من قبل شركة كلونايد، التي تحدثنا عن استنساخ رئيستها بريجيت بواسيلييه طفلةً سمّتها (حواء)، والتي لا حاجة إلى إضافة حرفي الألف والسين قبل الراء في اسم طائفتها (الرائيلية) لكشف انتمائها ومقاصدها. أكدت عدة صحف وفضائيات أن ذلك الحاكم، الذي صار في دار الحق على أيّ حال، اشترط في العقد إطلاق نسخته بعد عشرين سنة. أثار هذا الخبر هلع ملايين العرب من احتمال أن تتفوّق النسخة على الأصل، وأشفقوا على أحفادهم، شأن شعوب كثيرة، من طواغيت مستنسخة.



المراجع

(١) الصحف اليومية العربية، ٢٠٠٢/١٢/١٩م.
(٢) الصحف اليومية، ٢٠٠٣/١/٣١م.
(٣) الصحف اليومية، ٢٠٠٢/١/١٦م.



قصيدة

نون النسوة

عبدالقادر بن عبدالحي كمال

الرياض – السعودية

الأنثى تملأ أكواني
بالحبِّ وعطفٍ وحنانِ
تأسرني لطفاً ووداداً
بحدائق غُلْبٍ وجنانِ
تحضنني في ماطر غيْمٍ
وتغازل شوقَ الشطآنِ
وتسافر بي نحو نجومٍ
والبدر يعانق أجفاني
إن راق العيش تحضّنني
بالكرسي والسبع مثاني
أو مال الدهر تساعدني
أو أخفق وقتي ترعاني
ما أهنأ عيشي في روضٍ
والورد يداعب أشجاني
ما أحلى العيش ولي زوجٌ
تسري في نبض الشريانِ

***

المرأة دوماً تغريني
بجمالٍ وشموخِ جبينِ
تأبى أن تمشي في زلقٍ
أو تخضع قولاً في لينِ
تأسرني برجاحةِ عقلٍ
وبفكرٍ راقٍ ويقينِ
العالم يزهو بامرأةٍ
تفخر بالشرعِ وبالدينِ
لا دنيا من دون امرأةٍ
تأتي بعبير الليمونِ
لا دنيا من دون امرأةٍ
تمتصّ عواصف تشرينِ
لا دنيا من دون امرأةٍ
تهديني زهو العشرينِ
المرأة روحٌ وحياةٌ
والدرٌّ الغالي التثمينِ
في ضحكتها لمع بروقٍ
والبسمة منها تحييني
وتذيب بهمستها كدري
وتلطّف شجوي وحنيني
أرفيقةَ دربي وحياتي
وأمينةَ سرّي وكنيني
اسقيني حباً وحناناً
وبنون النسوة دفّيني



الاستشراق وفن التصوير

نزار طه شاهين
مصياف - سورية



الاستشراق بمعناه الأكاديمي هو مفهوم واسع يشمل الفن والفلسفة والأدب والموسيقا والعمارة وجوانب أخرى، وكل مفهوم من هذه المفاهيم يحتاج إلى دراسة مستفيضة، وسنتعرض في مقالنا هذا للاستشراق من أكثر من جانب. وقد تأثّر المستشرقون الغربيون الذين زاروا الشرق من خلال البعثات، أو من خلال التبشير، أو بشكل فردي، بهذه المفاهيم؛ فمنهم من درس الشرق بشكل استعلائي، وعدّ الشرق منطقةً في غاية التخلف والقذارة، ويحتاج إلى سنوات من التحضر، وعدّ الدين الإسلامي أهم سبب لهذا التخلف، ومنهم من درسه بعيداً من التعصب والحكم المسبق.

ظهر مفهوم مستشرق orintalis في أوربا في نهاية القرن الثامن عشر، أما مفهوم الاستشراق orintalism فقد ورد في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨م. وقد بدأ مفكرو الغرب المتعصبون حملةً كبيرةً عبر كتبهم ومؤلفاتهم، سواء الذين زاروا الشرق أم الذين بنوا أفكارهم بشكل تعسفي وهم قابعون في أماكن إقامتهم، فتم تحقير الثقافة العربية، والتركيز في مشهد التخلف والعنف والتعصب، وصورت المرأة سلعةً جنسيةً، ووضع جسدها تحت الأنظار. وقبل أن يبدأ الاستشراق كانت القسطنطينية قد سقطت في أيدي الأتراك عام ١٤٣٥م، وبدأت المظاهر الشرقية بالولوج إلى الدول الأوربية المجاورة، خصوصاً مدينة البندقية التي أخذت بالأزياء التركية، والأسلحة الشخصية، والخناجر المرصعة، والسيوف المقوسة ذات المقابض المحفورة بالزخارف والمزينة بالأحجار الكريمة، وهو ما حدا بالفنان البندقي جنتيلي بلليني إلى أن يرحل إلى القسطنطينية؛ ليرسم بورتريهاً للسلطان محمد الفاتح وبعض اللوحات التي نُسبت إليه؛ مثل لوحة استقبال سفير البندقية في القاهرة.

تنوّعت آراء المستشرقين في إظهار الشرق حسب المفاهيم التي تكوّنت لديهم، وسنستعرض آراء بعض المستشرقين سلباً وإيجاباً قبل أن نتعرّف علاقة الاستشراق بالفن.

السير فرانك ديكسي

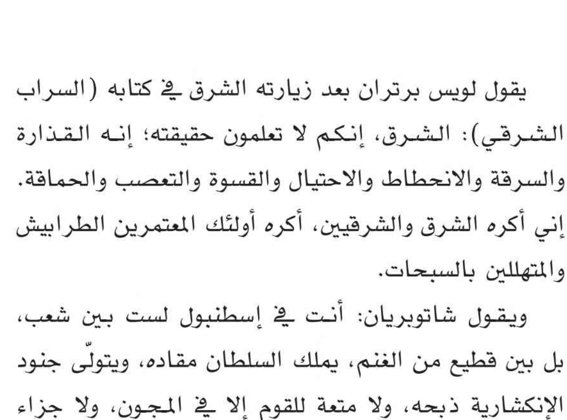
ولد السير فرانك ديكسي Sir Frank Dicksee في ٢٧ نوفمبر عام ١٨٥٣م في مدينة لندن البريطانية لعائلة كلّ أفرادها فنانون متميّزون. تلقّى تدريباته الأولى في الرسم على يد أبيه الفنان توماس فرانك ديكسي، ودخل المدرسة الملكية عام ١٨٧٠م ليتلقّى علومه فيها، وكان من بين مدرسيه لايتون وميلاس. لمع السير ديكسي طالباً في الأكاديمية الملكية، وحاز عدة ميداليات، ثم أصبح رئيساً لها عام ١٩٢٤م، وتوفّي في ١٨ أكتوبر عام ١٩٢٨م.



فاوستو زونارو

وُلد فاوستو زونـارو Fausto Zonaro في سان ريمو بإيطاليا عام ١٨٥٤م، وعاش بها شبابه وتعلّم الرسم، ورحل إلى فرنسا عام ١٨٨٨م وتعلّم من فنانيها، ثم سافر مع عائلته إلى إسطنبول عام١٨٩٠م، وكانت زوجته مصوِّرة، فعملا معاً لرسم معالم الحياة في إسطنبول وتصويرها، وأصبح أستاذاً في كلية الفنون الجميلة التي أسّسها حمدي بك، ورساماً في محكمة الدولة العثمانية. أُعجب به السلطان عبدالحميد الثاني، ومنحه منزلاً كبيراً وراتباً، وعمل أيضاً رساماً في مصنع الخزف الإمبراطوري، ورسم كلّ ما أمكن من جوانب الحياة في إسطنبول. غادر إسطنبول عام ١٩١٠م عائداً إلى سان ريمو، ومات فيها عام ١٩٢٩م.





يقول لويس برتران بعد زيارته الشرق في كتابه (السراب الشرقي): الشرق، إنكم لا تعلمون حقيقته؛ إنه القذارة والسرقة والانحطاط والاحتيال والقسوة والتعصب والحماقة. إني أكره الشرق والشرقيين، أكره أولئك المعتمرين الطرابيش والمتهللين بالسبحات.

ويقول شاتوبريان: أنت في إسطنبول لست بين شعب، بل بين قطيع من الغنم، يملك السلطان مقاده، ويتولّى جنود الإنكشارية ذبحه، ولا متعة للقوم إلا في المجون، ولا جزاء ينتظرهم غير الموت، وقد تستمع لصوت عود يسري إليك حزيناً خافتاً من أحد المقاهي، وتراهم جالسين حول فتاة ترقص رقصةً مخزيةً وهم في حلقات كالقرود، بينما يقوم قصر السلطان بين الإصلاحيات والسجون.

ويرى مونتيسكيو (١٧٤٨م) -مؤلف روح الشرائع- أن التسلط يتلاءم مع واقع طبيعي في الشرق، هو نتيجة للعامل المناخي؛ إذ يجد الشرقي نفسه مهيّأ للاستعباد.

ويرى المستشرق الفرنسي أرنست رينان أن هناك تمايزاً في البنية المعرفية للعقول بحسب الأعراف؛ إذ قال: العقل الغربي منذ اليونان عقل إبداعي، مقابل العقل الشرقي الذي لا يجاوز دور المحاكاة والاسترداد.

هوراس فرنيه

هو إميل جان هوراس فرنيه Emile Jean Horace Vernet. وُلد في ١٧ يناير عام ١٨٦٣م، وتوفي في ٣٠ يونيو عام ١٧٨٩م. رافق الحملة الفرنسية على الجزائر عام ١٨٣٠م، وسجّل بريشته المعارك، ورسم لوحةً مشهورةً تسمى (الدوق دومار يأسر الأمير عبدالقادر)، ويبلغ طول اللوحة ٢٤ متراً، وهي الآن محفوظة في متحف فرساي في باريس. وصفه الشاعر شارل بودلير بأنه (الجندي المستميت في التصوير).



في المقابل، أعلن الرّحّالون الجدد عام ١٨٥١م أن كلّ ما قيل عن الشرق هو أوهام وسراب، فجيرارده نيرفال يغاير شاتوبريان في وصفه الأتراك، ويغاير الروائي والأديب بيير لوتي (١٨٥٠-١٩٢٣م) أولئك المتعالين على النمط الشرقي بعشقه الشرق، وإنصافه من خلال أعماله الأدبية، إلا أن منهم من قدم دراسات نقدية منصفة وموضوعية، سواء من الأوربيين أم من العرب؛ مثل: المستشرق الألماني يوهان ج. راسكيه (١٧١٦- ١٧٧٤م)، وأنور عبدالملك، ومحمد أركون، وجون ماكنوي، وروبرت أكوين.

ويرى المفكر الفلسطيني الراحل إدوارد سعيد في كتابه (الاستشراق) أن الاستشراق ابتداع غربي تأسّس على نظرة دونية لكلّ ما هو شرقي، وأن الفن منتج تاريخي خدم السلطة الاستعمارية بالتوازي مع المنتج العلمي، وقد حاول علماء الاستشراق طمس مسؤوليتهم عن إبراز حقيقة الشرق بوصفه جزءاً من التاريخ الإنساني المعرفي، وتمّ التركيز في الكونيالية بوصفها مفتاحاً تنويرياً حمل إلى الشرق مفاهيم الحداثة، إلا أن ذلك كان نوعاً من التجديف؛ لذا غامر بعض المستشرقين بكشف أوهامهم. إن هذا التطرف المصحوب بتعصّب واضح ضد كل ما هو شرقي يجلي - بشكل ملحوظ - مدى التحجّر الذي وصل إليه بعض المستشرقين الذين لم تكن الموضوعية هدفهم قط، وقد تأكد أن بعض المستشرقين كان لهم ارتباط بالحركة الاستعمارية، وتجلّى ذلك عند غوستاف دوغا، وجاك بيرك. وقد انبرى بعض المفكرين العرب لمهاجمة معظم المستشرقين بشكل ابتعد من الموضوعية أحياناً، إلا أن مونتيسكيو دان كبقية بعض المفكرين الفرنسيين الحروب الاستعمارية ضد شعوب الشرق، واضطهادها، وتحطيم قيمها باحتلال أراضيها. وقد شُنّت عليه حملات قاسية من بعض المفكرين العرب نتيجة آرائه في هذا الصدد، ونحن على خلاف معه في أن يكون المناخ هو أهم سبب في تكوين طابع الاستكانة وقبول الظلم لدى الشرقيين. ومن خلال قراءة تاريخ مصر وبلاد الشام نلحظ استمرارية قبول الشعوب الاستعباد كأنه جزء من الحياة، وهذا ينسحب على الزمن الراهن؛ ففي كل يوم تقدم وسائل الإعلام براهين متنوعة لتعامل أكثر المستعبدين دمويةً مع شعوبهم بوصفهم رعايا يتصرفون بهم تصرّف المالك للقطيع.

نابليون والاستشراق

أخذ الاستشراق طابعاً واضحاً في بداية القرن التاسع عشر مع بدء احتلال الدول الأوربية العالم العربي، وتفكيك الدولة العثمانية، والاستيلاء على بعض أراضيها، وكشفت حملة نابليون تحوّل الغرب إلى حاكم ومربٍّ، ومن ثَمّ فهو مخوّل لتدريس الشرق ما يجب أن يكونه.

على الرغم من الآراء المتناقضة التي أثيرت حول حملة نابليون على مصر (١٧٩٨- ١٨٠١م) فقد رأى أحمد زكريا الشلق -أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة عين شمس بمصر- أن الحملة على مصر هي جزء من الأحلام الإمبراطورية لنابليون المسحور بالشرق، والمتأثر بكتابات المستشرقين، وقد يكون أحد

الأسباب طموحاته الشخصية أو أحلامه في أن ينهض به من خلال العلماء الذين اصطحبهم معه من كل الاختصاصات (الرياضيات، والكيمياء، والهندسة المعمارية، وهندسة المناجم، والطب، والجغرافيا، والرسم، والنحت، والأدب، والموسيقا، وغيرها)، وقد شبّه هذه المجموعة بكتيبة غزو لا تقلّ أهميةً عن كتائب الجيش؛ إذ بلغ عددهم ١٧٥ عالماً. وبسبب الشبهة التي نطلقها دوماً على كل ما هو غربي، ووضعه موضع الاتهام، فقد هُوجمت حملة نابليون من معظم المفكرين العرب على أنها حملة استعمارية فقط، الغاية منها الهيمنة على تراثنا وحضارتنا من دون أن نعير أيّ اهتمام لأيّ إيجابية ترافقت مع الحملة؛ فكتاب (وصف مصر) بأجزائه الستة عن حضارة مصر الفرعونية، الذي شارك في إنجازه ثلاثمئة عالم، ما هو إلا مؤامرة حاكها الفرنسيون لطمس حضارتنا التي كنا عنها ساهين لاهين، والمطبعة التي جاء بها نابليون معه جزء من هذه المؤامرة.ولقد بلغ عدد المخطوطات العربية والتركية والفارسية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر في مكتبة باريس ٣٥٠٠ مخطوط، وبالتأكيد فإن هذا العدد قد تضاعف، وهي مصنّفة تصنيفاً جيداً، وقد تشعّب اختصاص المستشرقين؛ فمنهم من درس اللغة العربية وفقهها، أو التشريع الإسلامي، أو الموسيقا بآلاتها وتصنيفاتها، وفنون الزخرفة والمنمنمات، والطب، والحكمة، وغيرها.

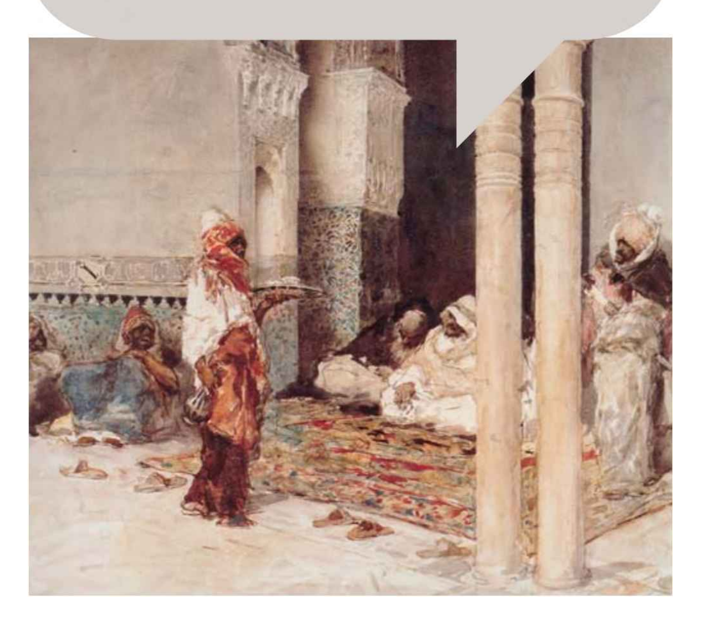
إن التناقض في الحوار الذي يتم من طرف واحد له صفة الحكم المسبق والجاهز لرمي الآخر باتهامات قد تكون من صنع مخيّلتنا التي تبحث عن الإثارة والظهور من خلال إبراز الصفات التي تدخل في صلب محاكمة غير عادلة غاب عنها الطرف المتهم الذي أصبح في ذمة الموت والتاريخ. ويبدو أن الحكواتي مازال يعيش في ذهنيتنا، وأن ما يسرّنا هو عنتريات عنتر لا أكثر.

دي لاكروا

هو فرديناند فيكتور أوجين دي لاكروا Eugène Delacroix. وُلد في ٢٦ إبريل عام ١٧٩٨م، وتوفي في ١٣ أغسطس عام ١٨٦٣م. وهو رسام فرنسي من روّاد المدرسة الرومانسية الفرنسية، وله كثير من اللوحات الفنية المحفوظة في متحف اللوفر وغيره. من أشهر لوحاته: الحرية تقود الشعب (١٨٣٠م)، وسلطان المغرب (١٨٤٥م)، والجزائريات (١٨٣٠م)، ويبدو فيها تأثّره بسفرته إلى شمال إفريقية.

ماريانو فورتوني

وُلد ماريانو فورتوني Mariano Fortuny في ريز بمنطقة كاتالونيا الإسبانية عام ١٨٣٨م، وتوفي في روما عام ١٨٧٤م. بدأ تعلّم الرسم بتشجيع من جده لأبيه في سنّ الثانية عشرة على أيدي فنانين محترفين، وذهب عام ١٨٥٢م إلى برشلونة، وتلقى دروساً علمية في الرسم، ثم سافر إلى روما عام ١٨٥٨م لمزيد من الدراسة. وفي عام ١٨٦٠م تمّ إرسال فورتوني إلى المغرب لتسجيل مشاهد معركة الحرب الإسبانية المغربية، فاستطاع أن يرسم مشاهد الحياة في شمال إفريقية حيث زار المغرب ثلاث مرات.



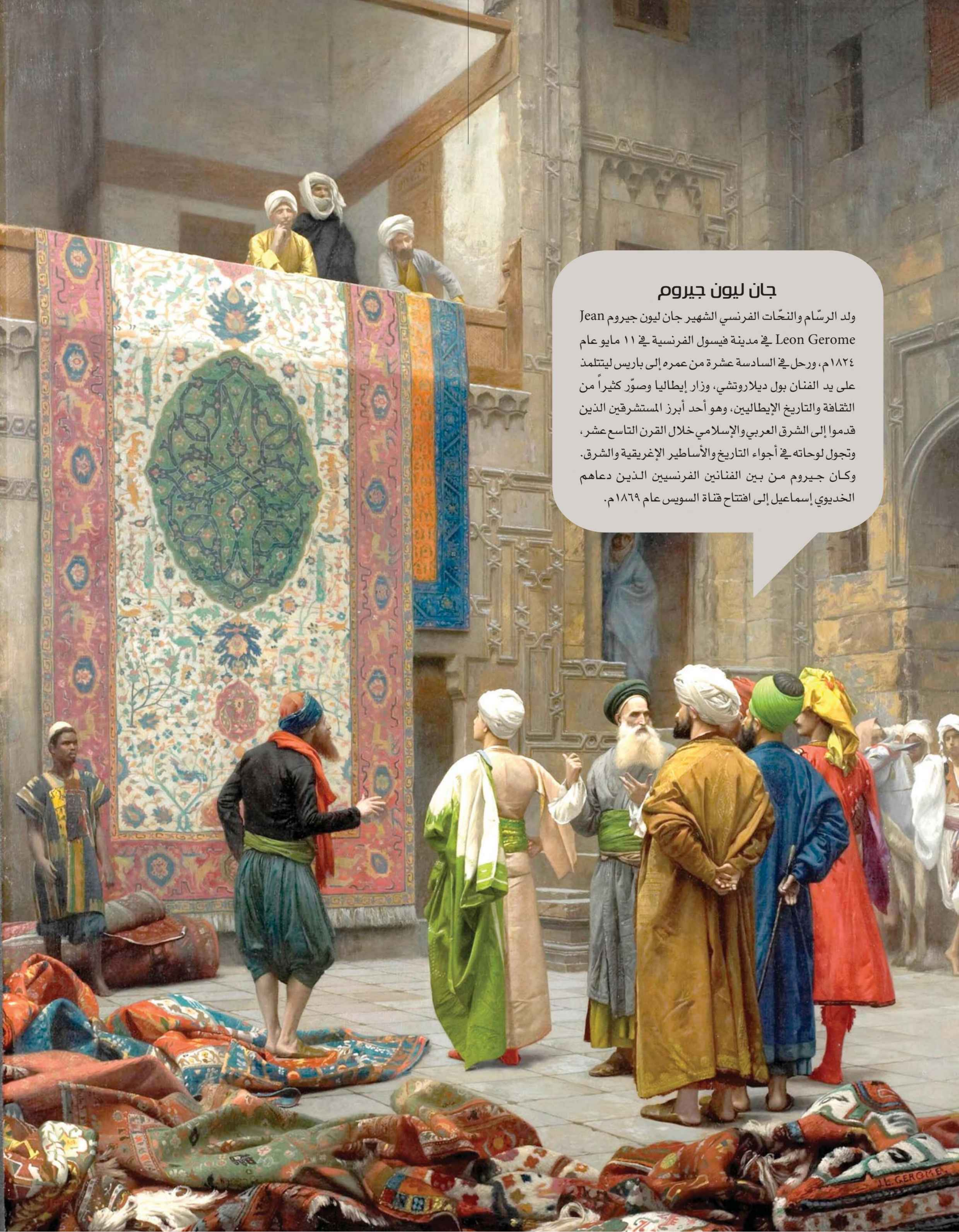
علاقة الاستشراق بالفن

ما يهمنا هنا هو علاقة الاستشراق بالفن بحيادية غير مؤدلجة تخدم المعرفة فقط. بدأ أول احتكاك معرفي بين الشرق والغرب بقيام علاقات دبلوماسية بين شارلمان وهارون الرشيد، ولم يكن الفن الإسلامي قد أخذ صيغاً مدرسية لها أساليب معتمدة بعموم الفن مع أنه لم يتعدَّ القوالب الزخرفية والنقش والزركشة والزخرفة النباتية والهندسية، إضافةً إلى الأشياء الاستعمالية التي أخذت منحى الفنون التطبيقية؛ كالنحاسيات بمختلف أنواعها وأشكالها، والسجاد، والخشبيات المحفورة، والأقمشة، والزجاجيات.

كان الفن في أوربا يعيش أزمته (أزمة روح)، خصوصاً في فرنسا؛ فقد كان لصيق البرجوازية الفرنسية والإقطاع، فعمت السطحية فيه، وتمّ الابتعاد من الأسس الجمالية التي قام عليها الفن الكلاسيكي، وكان إرضاء الذوق الفني للنخبة، والاغتراف من مباهج الحياة، سببين في سيادة الألوان الزاهية، وحلّت الخطوط الخفيفة محلّ الخطوط الصارمة والقوية، وحلّت الموضوعات الحسية المثيرة في أعمال فناني الروكوكو؛ كصور المحظيات والغانيات والعاريات التي انتشرت في قصور النبلاء. وفي هذا العصر (الروكوكو) أدخلت الصورة الشرقية شكلاً ومضموناً في فن التصوير الأوربي، وبدأ نوع من الحمى الشرقية يجتاح حياة القصور والصالونات، وبدأت نساء القصور من النبيلات وغيرهن بالتشبه بالسلطانات الشرقيات بلباسهن ونمط حياتهن، فهاهما مدام بومباردو ومدام دي باري -محظيتا الملك لويس الخامس عشر- يقفان أمام الفنان ليرسمهن كالسلطانات، وانتشر رسم البورتريه واللوحات الاستشراقية؛ مثل: السلطانة تشرب القهوة، والسلطانة وجواريها، والسلطانة في الحديقة، وغيرها. لكن الفن خرج من أزمته، وحرّرته الثورة الفرنسية، وأتاحت للفنان التخلص من قيود الإقطاع والكنيسة، وكان النزوع إلى تأميم الآثار الفنية والمتاحف هدفاً، وكان الفنانون بحاجة إلى موضوعات جديدة بعد استهلاكهم قصص الكتاب المقدس، وتصوير أمراء الإقطاعيات ورجال الكنيسة. وقد سبقت حملة نابليون ترجمة كتاب (ألف ليلة وليلة) في أوائل القرن الثامن عشر على يد الباحث الفرنسي أنطوان غالان عام ١٧٠٤م، وقد أضرمت نيران الولع بالشرق لتفتح بوابة الخيال أمام نوع من السرد المتخيّل، والاستمتاع الحسي بالمحكيّ عن نساء جميلات هنّ معشوقات الأمراء والسلاطين، يشكّلن وجبات من التلذذ لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد. لقد انتقل البهاء الشرقي إلى صميم الفنانين، وبدأت مرحلة من الأكزوتية؛ أي: الشغف بكل ما هو غريب، تأخذ بخيالات الفنانين.

ألف ليلة وليلة

أما حكايات الشرق الغامض الساحر من خلال (ألف ليلة وليلة)، فقد فتحت الباب ليلج منه الاستشراق، ويثبت مفاهيم قد تكون خاطئة حول الشرق والشرقيين، إلا أن نابليون بونابرت أعاد الفن إلى القفص ليغرّد باسمه وأطره؛ ليخدم مشاهد الحروب التي خاضها، ويسجل انتصاراته الدامية حتى الوهمية منها.



جان ليون جيروم

ولد الرسّام والنحّات الفرنسي الشهير جان ليون جيروم Jean Leon Gerome في مدينة فيسول الفرنسية في ١١ مايو عام ١٨٢٤م، ورحل في السادسة عشرة من عمره إلى باريس ليتتلمذ على يد الفنان بول ديلاروتشي، وزار إيطاليا وصوّر كثيراً من الثقافة والتاريخ الإيطاليين، وهو أحد أبرز المستشرقين الذين قدموا إلى الشرق العربي والإسلامي خلال القرن التاسع عشر، وتجول لوحاته في أجواء التاريخ والأساطير الإغريقية والشرق. وكان جيروم من بين الفنانين الفرنسيين الذين دعاهم الخديوي إسماعيل إلى افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م.

جمال الشرق يعبث بالخيال

تعدّ لوحة موت ساردانابال من أهم لوحات الاستشراق المبكر؛ ففيها كلّ العناصر الشرقية الفاتنة، وقد أجّج دي لاكروا المشاعر البصرية من خلال التفصيلات التي وضعها في اللوحة، والأجساد المترعة بالعافية الجنسية، والملك المستلقي تلتفّ حوله مجموعة من الجواري، وعند قدميه أمته، وهم بانتظار النار التي ستأتي عليهم كأنهم قرابين. وحرص الفنانون على الإثارة لدعم موضوعاتهم، وغدت سوق النخاسة موضوعاً شائعاً يتيح لهم عرض أجساد النساء عاريةً أو تحت لباس يشفّ عن جمال يعبث بخيال المشتري والرائي. وصار الحرملك مصدر إلهام للفنانين، فراحوا يغرفون منه تاركين لخيالاتهم ابتداع أجساد تفيض بالرغبة والجمال، ومع أن عدداً منهم صوّر الحياة اليومية بأشكالها، سواء الأسواق بما تحتويه من عرض للسلع، أو معاينتها من الزبائن، أو الحارات بناسها، أو المساجد بهيبتها الروحية، أو الحياة اليومية في البيوت، وطرز عمارتها، وزخارفها، والعبيد والإماء الذين يشغلون حيزاً من المشهد، فقد أولى بعض الفنانين الدقة لنقل المشاهد بألوانهم الساحرة، والأزياء الملونة بشفافيتها الكاشفة لما يمكن أن يكون مستوراً. ولم يقتصر الأمر على المصورين، فقد بدأ الأدب يغرف من هذا المنهل، كالموسيقا التي أغنت الأوبرا بموضوعات شتى، ولو أردنا تعداد الأعمال الأدبية أو الأوبرا لضاق بنا المجال مادام موضوعنا في الأساس هو فن التصوير والاستشراق.

أتاح الاستشراق الفرصة للفن الأوربي كي يخرج من أزمته، فانطلق الفنانون يجوبون الشرق يبحثون عن أحلامهم وخيالاتهم في لوحاتهم؛ فالرسامان ميللينغ وبريزيوري لحقا بليوتارد وفينمور إلى تركيا، أما لويس ودي نيرفال وجيرمي وفلورانس نايتنجيل فقد ذهبوا إلى مصر، ودي لاكروا ذهب إلى مراكش حيث اكتشف تلك الألوان الصارخة، وتأثر ببيوت طنجة وشرفاتها ونصاعة البياض فيها، ولما احتلّت فرنسا الجزائر زارها الفنان، وكانت نتيجة زيارته لوحته الرائعة (جزائريات في غرفتهن) عام ١٨٣٤م، وزارها كثير من الفنانين الفرنسيين؛ كهوراس فرنيه الذي صوّر أسر قافلة الأمير عبدالقادر الجزائري، ولوحته موجودة في متحف فرساي، ويبلغ طولها ثلاثة وعشرين متراً، وقد نالت الإعجاب في صالون باريس (١٨٤٥م).

أما في الفنون البصرية، فبعد دخول الحرملك في مساحة الرؤية الفعلية أو المحكية بات هناك مسوّغ ملائم لرسم العاريات الحالمات، وصارت الجواري رمزاً للروعة الشهوانية والغرائبية، وتم اختلاق كثير من المشاهد البصرية التي يلفّها غموض حسي؛ فلوحة آنجر (الجارية المستلقية) عام ١٨١٤م لم تكن بالمطلق جاريةً شرقيةً، وإنما كانت جسداً من الشمع، وهو تشريح لجسد امرأة أوربية مستلقية تولّي ظهرها للمشاهد، أبرز الفنان شرقيتها بعمامة ونارجيلة ومروحة، بينما جسدها الملفوف بخضاب الرغبة برزت منه تفصيلات تقول: هاأنذا.

وهناك مجموعة من المصورين لم يغادروا بلادهم، وكانوا يسمون (مصوّري المقاعد الوثيرة)، اقتبسوا موضوعاتهم من مجموعة الصور المطبوعة، كما فعل الرسام الفرنسي آنجر في لوحته المشهورة (الحمام التركي).

التصوير الفوتوغرافي

عندما ظهر التصوير الفوتوغرافي بديلاً تسجيلياً للوحة كانت شركات التصوير تمارس نشاطها في الشرق منذ ستينيات القرن السادس عشر؛ مثل: شركة بونغيها آند صن، ثم أنتجت شركة كوداك كاميرا محمولة يمكن استخدامها بسهولة، وما إن حلّت نهاية القرن التاسع عشر حتى قلص التصوير الفوتوغرافي رسم اللوحات الاستشراقية، وكان الفنان الإيطالي فوستو زونارو (١٨٥٤- ١٩٣٩م) قد أعاد رسم الصور الفوتوغرافية التي التقطها في كل من الجزائر والقاهرة وإسطنبول سواء بالألوان الزيتية أم بالمائية أم بالرصاص، وكان جان ليون جيروم قد قام برحلة إلى تركيا، ومن بعدها إلى مصر وفلسطين وسورية وسيناء وشمال إفريقية، وقام بإعادة إنتاج الصور الفوتوغرافية بلوحات



لاري ريفرز

هو فنان وموسيقي ومخرج وممثّل أمريكي، وُلد في حيّ برونكس الفقير بمدينة نيويورك في ١٧ أغسطس عام ١٩٢٣م لأبوين يهوديين روسيين، وحمل اسم يوتزهوك لويزا جروسبيرج Yitzhok Loiza Grossberg، قبل أن يغيّره في عام ١٩٤٠م إلى لاري ريفرز Larry Rivers. عمل عازف ساكس لموسيقا الجاز في مدينة نيويورك، ودرس في مدرسة جويليارد للموسيقا، ويعدّ الأب الروحي لفن البوب، ودرس الرسم في مدرسة هوفمان هانز، ثم في جامعة نيويورك.

كارل بريولوف

وُلد كارل بريولوف Carl Bryullov في ١٢ ديسمبر عام ١٧٩٩م بإيطاليا لعائلة أكاديمية، وكان والده بافل إيفانوفيتش نحّاتاً يحفر على الخشب. تلقّى كارل تعليمه في روسيا، وعلى الرغم من تعليمه في أكاديمية الفنون الملكية (١٨٠٩-١٨٢١م) إلا أنه كان كلاسيكياً على خطا شقيقه ألكسندر بريولوف. ومن أشهر أعماله: اليوم الأخير من بومبي، وتوفي بإيطاليا في ١١ يونيو عام ١٨٥٢م.



غاية في الدقة والإبداع، وبألوان جريئة، وكانت التفاصيل في اللوحة مذهلة، وقد فُتن بالحمامات التركية؛ فأبدع مشاهد منها، ومن الحرملك، ويبدو أنه استقاها من الروايات المحكية عن هذا العالم الغامض الساحر؛ فنساؤه اللاتي يظهرن في لوحاته خلف سديم الأبخرة في الحمامات هنّ نساء كاملات كأنه جلبهن من عالم يغصّ بالرغبات التي يفصح عنها الآن، وقد تنوّعت موضوعاته لدرجة التساؤل: من أين يتأتّى له كل هذا الخيال؛ ليرسم هذا العالم المملوء حتى بأدقّ التفاصيل المحيّرة التي لا تستطيع عدسة الكاميرا التقاطها؟!. وقد بذل جهداً مضنياً لإبراز كلّ ما هو شرقي من خلال التركيز فيما ينضح من خياله لإعطاء أيّ موضوع تفصيلاته التي يتفرّد بها باقتدار يُؤخذ في الحسبان؛ فلوحته المنفّذة بالحفر الفوتوغرافي (الحمام الكبير في بورصة) عام ١٨٨٥م ارتقى بها إلى كل ما هو متخيّل عن حمام يعجّ بمستحمات عاريات غافلات عن المراقبة، تطفح أجسادهن بالاشتهاء.

كانت مصر قد خلبت لبّ أوربا، وألهبت خيال الأوربيين، وعندما تكلّلت بالنجاح جهود المصوّرين الفرنسيين لويس جاك داجيري وزميله ألفونس جيرو، في إنتاج أول صورة فوتوغرافية عن طريق آلة التصوير عام ١٨٣٩م، كانت هذه الآلة في مصر؛ إذ تقاطر عليها مجموعة من المصورين من إسطنبول، سواء المكلّفون من السلاطين أم من جاء على نفقته الخاصة، إضافةً إلى الإيطالي كارلو نايا، واليوناني زنجا كي، الذي كان غزير الإنتاج، وقد رصد الحياة في المدن المصرية؛ كالقاهرة، والإسكندرية، وبور سعيد، إضافةً إلى عدد من المصورين الأرمن والفرنسيين.

وانتشرت حمى التصوير الفوتوغرافي، وأبدع في هذا المجال عدد منهم؛ فقدموا أعمالاً منافسة للوحات الاستشراق، وهذا الأمر قلّص رحلات الفنانين إلى الشرق.

تعدّ الحقبة بين عامي ١٨٤٠ و١٨٨٠م حقبة ذهبية لفن الاستشراق؛ فما من مصوّر له من الشهرة مكان إلا وكان مستشرقاً: دي لاكروا وجيروم من فرنسا، ومكارت من النمسا، وبريولوف من روسيا، وهولمان هنت من بريطانيا، وفورتوني من إسبانيا، وكافي وكور دوني من إيطاليا. ولا يسعنا هنا ذكر جميع الفنانين الذين زاروا مراكش والجزائر وتونس؛ أي: دول المغرب التي خضعت للاحتلال الفرنسي.

ويعدّ افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م هو بداية نهاية فن الاستشراق؛ فقد جسرت الهوة بين الشرق والغرب، كما أن تطور التصوير الفوتوغرافي أوقف هجرة الفنانين لاستقاء موضوعاتهم؛ فعين الكاميرا باتت أكثر توثيقاً وسهولةً، وبدأت المجلات المصورة (لستريد لندن نيوز الإنجليزية، ولوستراسيون الفرنسية) منذ عام ١٨٥٠م تطالع قراءها بالصور الفوتوغرافية عن الشرق، وبدأت الصالات التي كانت تحتكر أعمال الاستشراق (صالون باريس، ومعرض الأكاديمية الملكية بلندن) تتجه نحو موضوعات أخرى بعد أن جفّت منابع الشرق من الموضوعات التي تحتوي كثيراً من الجديد.

المراجع

(١) ثروت عكاشة، كتاب العربي، الشرق في عيون غربية.
(٢) زينات بيطار، عالم المعرفة، الاستشراق في الفن الفرنسي.
(٣) أليف كروتييه، عالم الحريم خلف الحجاب، ترجمة: خليل علي.



قصص قصيرة جداً

محمد المنصور الشقحاء
الطائف – السعودية

قصة

النسخة الأولى

أخذ يمزّق المظروف بوله، وبرز الغلاف الموسوم بصورتها. إنها النسخة الأولى من كتابه الجديد.

ما إن فتح الغلاف حتى أحسّ بوخز في باطن كفّه الأيمن. أعاد طبق الغلاف، كانت صورة عواطف تتموّج غائمةً بأطراف مدبّبة. ووقع الكتاب على الأرض. أخذت الحروف تنسل متناثرةً، ومع اندهاشه انفتح باب الغرفة، وارتفع صرير مزلاج النافذة لتفتح على مصراعيها.

فامتد خطّ من الأحرف ومن أوراق الكتاب إلى عنان السماء.

النجاح

أخذت تركض في أرجاء الدار. أخيراً نجحت، لم تفكّر في نسبة التقدير، كان همها اجتياز عقبة أخفقت في تخطيها خمس مرات، ولما شعرت بالتعب دخلت غرفتها ونامت.

أقلق الجميع تأخرها، أسرعت أمها وإحدى أخواتها، استقبلتهما رائحة عبقة وابتسامة صغيرة.

هزّتها أختها، كانت متصلبةً وباردةً. لقد أسلمت الروح منذ كان انتصارها.

المدرج

بسبب الفراغ شعر بالاختناق، فأخذ طفله وتوجّه بسيارته إلى المدينة الرياضية. الأضواء تملأ المكان، وصوت الرعد، ومذيع يعلن نتائج المتسابقين.

جلس في آخر المدرج الجنوبي يراقب الناس والألعاب. الطفل أخذ يتنقل بين المقاعد الفارغة والحاجز الحديدي الذي يحمي الملعب، وفي الثامنة شعر الطفل بالتعب، فصعد المدرج، وجلس بجوار والده. في العاشرة لاحظ أحد رجال الأمن الطفل ووالده. كان الطفل نائماً، والرجل جثةً هامدةً.

وجه

الطابور طويل، ويشكّل ثلاثة مسارات. كنت أقف في المسار الأول، بينما يقف في المسار الثاني صديق. تقدمنا، مع بطئه كان منسجماً؛ مما أعطانا فرصة المناقشة. المسار الثالث أسرع، تأكدت من ذلك وأنا ألحظ وجهاً غاب اسمه يتكرّر.

انتقلت إلى المسار الثالث، وتجاوزت صديقي، ووقفت أمام النافذة. الموظف يحمل وجهاً يتكون من قسمين: الأول جزء من الوجه الذي تكرر، والجزء الثاني بعض معالم وجه الصديق الواقف في المسار الثاني.

سدّدت القسط التاسع من قرض بنك التسليف العقاري، وخرجت. رجل السير بجوار سيارتي اقتربت وجلاً، فتحت الباب، أدرتُ المحرك، ابتسم وهو يتجاوزني، على ظهره رسم وجه: قسم يحمل وجه صديقي، وقسم يحمل الوجه المتكرر.

العجوز

تعمقت في داخلي صورة العجوز الذي كان جالساً أمام باب المسجد يبكي، فتصاعدت الغصة في صدري.

تذكّرتُ أني يومها تجاوزته من دون مبالاة. ركضت عندما تعالت زفراته نحو عربتي، وغادرت المكان.

الطرقات مزدحمة، وأناس يتحركون أمامي وقد اختفت معالمهم.

شيء في ذاتي يتربّص بي، وعند مدخل المقهى كان اللقاء.

دعوته إلى مشاركتي مجلسي. أمرتُ النادل بإحضار شيشة أخرى، كنت: أنا، وكان: أنا.

غمغم النادل وهو يثبت رأس الشيشة بكلمات مبهمة، وغادرني.

تشعّب حديثنا،

قال: أغصان المكان إليك.

قلت: ماذا؟

على الرغم من مرارتي نهض.

ترك الغصة تتصاعد في داخلي؛ فالعجوز يقف في المكان يطلب صدقة، يرجو إحساناً، إنه ذاك الزمن وهذا المكان.

البديل

أخذ يحدّق في المارة، يتأملهم بإصرار متناه، بينما أصابع يده اليسرى تقوم بنتف شعيرات ذقنه التي لم يحلقها منذ عشرة أيام.

وفي لحظة انجراف لا يدري أحد كيف كان قفز من مكانه فوق الرصيف إلى أسفلت الطريق العام؛ لتسحقه عربة شحن أمام عيون الجميع، ويتوقف تصوير المشهد، ويتكوّم المشاهدون.

يتقدم أحدهم إلى مساعدته على النهوض من مكانه، ويرفض اليد الممدودة، ويغادر المكان في صمت وخيلاء.

توهج

اشتعلت النار في العربات المصطدمة، وأخذ الناس في سحب من بداخلها، وقبل أن يتمكن الجمع من إخراجي تفجّر كل شيء.

النيران تطوقني من كل مكان، وأخذت أتوهج وقد ارتسمت على وجهي ابتسامة صغيرة.

بوح

قالت وهي تصلح الغطاء على وجهها: منذ زمن أشعر بالحزن. لقد توقف مرجل الحب في أعماقه، فأخذ ينفر من مواعيدي، يتهرّب من استقرارنا الموعود.

قالت وقد أصبح وجهها قطعةً من السواد: إنه يرتكب الأخطاء كلّ يوم، ومع تجاوزي ذلك أخذ ذات يوم يبكي حتى تلاشى، أصبح ذرّات حاولت جمعها، لكن هبّت الرياح، ولم أتمكن من جمع سوى بقايا.

ديفيد لونغ باحث أمريكي له اهتمامه الكبير بالمملكة العربية السعودية من خلال المعايشة الحياتية، والدراسة العلمية، وهو يبدي دهشته لسلاسة التحولات في المملكة، وقد اهتم، بشكل خاص، بالحج. ولما تحتاج إليه دراسة هذا الموضوع من جهد كبير استعان بزميله الباحث سيباستيان ميسل؛ لتطوير كتابه عن إدارة الحج الذي وضعه منذ ٣٣ عاماً. في هذا الحوار معهما نقف على بعض انطباعاتهما؛ لعلها توضح كيف يفكر الأمريكيون وهم ينظرون إلى بلادنا العربية، وما تشهده من تحولات سياسية.



ديفيد لونغ: لا توجد رؤية أمريكية واحـدة للمملكـة

حوار: يوسف باش أعيان
هيئة التحرير

سيباستيان ميسل: اهتمامنا الرئيس بالبعد الإنساني في حياة السعوديين

* أبدأ حواري مع السيد ديفيد لونغ فأسأل: ما انطباعك عن المملكة العربية السعودية في كلّ مرة تزورها؟ وهل من تغيرات ملحوظة على جميع الصعد؟

- قدمت المملكة العربية السعودية أول مرة دبلوماسياً صغيراً في السفارة الأمريكية، ومكثت بها من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٦٩م، وتكرّرت زياراتي المملكة عقب ذلك دبلوماسياً وأستاذاً وكاتباً، وفي كل مرة أزور فيها المملكة ألاحظ تغيرات جذرية مذهلة على المستويين المادي والاجتماعي؛ ففي عام ١٩٧٣م، وبعد انتهاء قرار وقف تصدير النفط العربي، نما الاقتصاد السعودي بشكل كبير، ثم انحدرت أسعار النفط في ثمانينيات القرن المنصرم، لكنها عاودت الارتفاع في عام ٢٠٠٣م، واستمرت على هذا النحو. هذا الارتفاع المذهل والمفاجئ نوعاً ما في أسعار النفط أدى بالضرورة إلى ارتفاع حجم العائدات المالية للمملكة العربية السعودية، وأدى هذا الارتفاع في حجم العائدات إلى تطوّر سريع، وأدى هذا التطور السريع إلى ما يُعرف اصطلاحاً بالصدمة الحضارية، لكن هذه الصدمة الحضارية لم تؤدِّ إلى ما أدّت إليه الحداثة في الغرب؛ إذ انسلخ المجتمع من قيمه الدينية، وتحول من الدولة الثيوقراطية إلى الدولة العلمانية؛ فقد أدت الحداثة في السعودية إلى تطور اجتماعي يحتضن القيم الدينية والثقافية للمجتمع، ومازال المجتمع في تطور، وقد ألّفت كتاباً في عام ٢٠٠٥م سمّيته (العادات والتقاليد في المملكة العربية السعودية)، سلّطت من خلاله الضوء على أبرز مواطن تصادم العادات الاجتماعية مع الحداثة. وفي زيارتي هذه بدا واضحاً لديّ حجم النمو العمراني المذهل الذي تعيشه المملكة في مختلف مناطقها، خصوصاً جدة والرياض والمنطقة الشرقية.

* ما الصورة النمطية لدى الأمريكيين عامةً عن مجتمع الجزيرة العربية؟

- لا يمكننا أن نقول: إن هناك وجهة نظر أمريكية موحّدة أو عامة عن الحياة والمجتمع في الجزيرة العربية، خصوصاً المملكة العربية السعودية؛ فالأمريكيون يعرفون القليل عن المجتمع السعودي، أو عن الإسلام الذي يشكّل العنصر الأساسي في البنية الثقافية والقيمية للمجتمع السعودي. لكن أبرز ملامح نمط الحياة والمجتمع في السعودية لدى معظم الأمريكيين هي تلك السلوكيات التي تميّز المجتمع السعودي من المجتمعات الغربية؛ كتعدد الزوجات، والفصل بين الجنسين. أما بالنسبة إلى الأمريكيين الذين يفهمون تركيبة المجتمع السعودي، فإن أكثر ما يثير الإعجاب هو ما ذكرته آنفاً عن القدرة على المزج بين الحداثة والتطور من جهة، والمحافظة على العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية من جهة أخرى. أما بالنسبة إليّ بوصفي باحثاً في التاريخ، فإن ما يثير اهتمامي وإعجابي فعلاً هو أن التطور في أوربا تخلّله عدد من الحروب على مدى القرون الستة الفائتة نتيجةً حتميةً للتغيرات الاجتماعية والصدام بين الشعوب والسلطة، بينما يحدث التطور والإصلاح في السعودية بشكل سلس وتلقائي بلا حروب وتصادمات.



ديفيد إي لونغ

- يحمل شهادة الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة جورج واشنطن.
- مستشار في شؤون الشرق الأوسط والخليج العربي والإرهاب الدولي.
- التحق بوزارة الخارجية الأمريكية عام ١٩٦٢م، وعمل في واشنطن وخارجها حتى عام ١٩٩٣م، وحملته الوظيفة إلى السودان والمغرب والمملكة العربية السعودية والأردن.
- عمل في واشنطن نائباً لرئيس مكتب مكافحة الإرهاب للسياسات الإقليمية، وعضواً في هيئة التخطيط السياسي في وزارة الخارجية الأمريكية، وكبير باحثي قسم البحوث في دائرة المخابرات والبحوث بوزارة الخارجية الأمريكية، وانتدب إلى المعهد القومي للدراسات الإستراتيجية بين عامي ١٩٩١ و١٩٩٢م، وانتدب كذلك إلى الأكاديمية الأمريكية لخفر السواحل بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩١م، فعمل أستاذاً زائراً في العلاقات الدولية، وعمل في عام ١٩٩٠- ١٩٩١م نائباً لرئيس قسم العلوم الإنسانية في الأكاديمية، وعمل كذلك رئيساً لقسم الدراسات العربية المعاصرة بين عامي ١٩٧٤ و١٩٧٥م، وعمل في حقل التدريس في عدة جامعات أمريكية، أبرزها جامعات: جورج تاون، وجورج واشنطن، وجونز هوبكينز.
- مؤلفاته: الحكومات والسياسات في الشرق الأوسط وشمال إفريقية (مشاركةً مع برنارد رايخ، ٢٠٠٢م)، وأمن الخليج في القرن الحادي والعشرين (مشاركةً مع كريستيان كوخ، ١٩٩٨م)، والمملكة العربية السعودية (١٩٩٧م)، وتشريح الإرهاب (١٩٩٠م)، والولايات المتحدة الأمريكية والمملكة العربية السعودية: الحليفان المختلفان (١٩٨٥م)، والحداثة السعودية (مشاركةً مع جون شو، ١٩٨٢م)، والحج اليوم: دراسة معاصرة حول الحج إلى مكة (١٩٧٩م)، والمملكة العربية السعودية والخليج (١٩٧٦م).

*** حدثنا عن مؤلَّفك الأخير (المملكة العربية السعودية) الإصدارين الأول والأخير؟ ما القضايا التي تطرحها من خلالهما؟ وما الفرق بين الإصدارين؟**

- في العموم القضايا المطروحة متشابهة بين الإصدارين: الأرض، والمجتمع، والنظام السياسي، والنظام الاقتصادي النفطي، وسياسة الأمن القومي والعالمي. السبب الذي جعلني أقرّر نشر إصدار آخر هو التطور الاجتماعي المستمر، واتساع الاهتمام السعودي بالقضايا الاقتصادية والسياسية والأمنية العالمية، هذه الأسباب جعلت الإصدار الأول إصداراً قديماً، ووضعته خارج نطاق الزمن، وهذا الأمر اقتضى إضافة بعض التعديلات ونشرها في إصدار جديد، وكذلك موضوع القدرة على الدمج بين التقاليد والحداثة؛ فهو لا يزال عاملاً أساسياً في نشر هذا الإصدار الجديد.

*** ما الذي أثار اهتمامك في إدارة الحج؟**

- عندما كنت دبلوماسياً صغيراً في السفارة الأمريكية في جدة كان كبار الدبلوماسيين هناك شديدي الشغف بعملهم، وكانوا يكلون إليّ مهام الكتابة والمراسلة مع وزارة الخارجية في واشنطن، وقد طلب مني السيد هيرمان إيليتس -السفير الأمريكي في السعودية- عام ١٩٦٩م كتابة تقارير عن الحج لذلك العام والعامين المقبلين. كما درست موضوع الحج عندما التحقت بالجامعة لإكمال دراساتي العليا، لكنني لم أكن أعلم شيئاً عن كيفية إدارة هذه العملية المعقدة، وهو ما أثار فضولي بشكل كبير، وبعد عدة سنوات سنحت لي عدة فرص لكي أتناول الغداء مع أحد المطوّفين في المطعم التابع لفندق الحرمين في جدة (الذي

ميسل: اهتمامي باللغة العربية يعود إلى مرحلة طفولتي ونشأتي في ألمانيا الشرقية؛ إذ أردت فهم حالة الاستقطاب التي كانت تسود العالم آنذاك



كان المطعم الوحيد في جدة آنذاك)، وكان يأتي عادةً بمعية وكيل أو دليل من المدينة أو زمزمي من مكة أو أحد كبار الموظفين في وزارة الحج والأوقاف، بعد ذلك بوقت قصير أصبح لديّ صندوق كبير من الوثائق التي تشرح كيفية إدارة عملية الحج، عُدت به إلى واشنطن عام ١٩٧٠م. عندما عُدت إلى وزارة الخارجية في واشنطن سألني رئيسي عن سبب عدم حصولي على شهادة الدكتوراه، فقلت له: إنني لم أعد صغيراً، وكان عمري وقتذاك ٣٢ عاماً، فأقنعني بالعدول عن قراري، وقرّر إعطائي دروساً في الشريعة؛ إذ كان يعمل محاضراً في كلية الحقوق بجامعة جورج واشنطن، وكان متخصّصاً في الشريعة؛ إذ كان يعمل قبل التحاقه بوزارة الخارجية محامياً لحساب شركة نفطية في الخليج، وقرّرت هذه الشركة ابتعاثه إلى الأزهر ليدرس الشريعة. وافقت على اقتراحه باستكمال دراستي، وبالفعل بدأت كتابة رسالتي، لكن عملي كان عائقاً أمام إتمامي كتابة الرسالة، فطلبت من الجامعة أن أكتب بحثاً عن إدارة الحج، فقال لي الأستاذ: لا توجد رسائل عن هذا الموضوع، ووافق بعدما أريته الصندوق المملوء بالوثائق التي أتيت بها من السعودية، وبعد إتمام رسالتي اتصل بي شخص استطاع الحصول على نسخة من رسالتي، وعرض عليّ المساعدة لكي يتم نشر هذه الرسالة، وهو ما تم بالفعل عام ١٩٧٩م. وفي نوفمبر عام ٢٠١١م كنت أتصفح موقع أمازون، ففوجئت بأن كتابي ما زال يطبع بعد ٣٣ عاماً؛ فالكتاب أصبح خارج نطاق الزمن، فسألت الناشر عن سبب طباعته حتى هذا الوقت، فأجابني بأنه الكتاب الوحيد من نوعه، فقرّرت إضافة التعديلات ونشر الكتاب من جديد بإصدار جديد بمشاركة الدكتور سيباستيان ميسل، وهو سبب وجودنا هنا اليوم؛ فقيام المملكة العربية السعودية باستضافة ثلاثة ملايين حاج وستة ملايين معتمر سنوياً يعدّ أمراً مثيراً للاهتمام، ويجب أن يُعرف عالمياً.

لونغ: قيام المملكة العربية السعودية باستضافة ثلاثة ملايين حاج وستة ملايين معتمر سنوياً يعد أمراً مثيراً للاهتمام

*** أتوجه الآن بالسؤال إلى الدكتور سيباستيان ميسل: كيف بدأ اهتمامك باللغة العربية؟ وما السبب الرئيس الذي دفعك إلى تعلّمها ودراستها؟ وما حجم الإقبال على دراسة اللغة العربية والدراسات**

الإسلامية، سواء في ألمانيا أم في الولايات المتحدة الأمريكية؟

- اهتمامي باللغة العربية يعود إلى مرحلة طفولتي ونشأتي في ألمانيا الشرقية؛ إذ أردت فهم حقائق الحرب الباردة، وحالة الاستقطاب التي كانت تسود العالم آنذاك. العالم العربي، والشعوب العربية، والثقافة العربية، والسياسة العربية، كانت قريبةً من الألمان الشرقيين، وكان كثير من الطلاب والعاملين العرب حاضرين في مجتمعنا، وكان النضال الشعبي الجزائري ضد الاستعمار، والنضال الفلسطيني ضد الاحتلال، من الموضوعات الشائعة للنقاش، فأثارت فضولي عن الشعوب والمجتمعات التي تعيش في الشرق الأوسط، إضافةً إلى أن جامعة لايبزيك الألمانية كانت تضم أفضل برنامج لتعليم اللغة العربية في ألمانيا، سواء الشرقية أم الغربية، والتوجه العام في ألمانيا هو دراسة قضايا الهجرة والحقوق، ودمج المواطنين العرب والمسلمين في المجتمع الألماني.

أما في الولايات المتحدة الأمريكية، فالدراسات العربية والإسلامية مرغوبة بصورة مقبولة بين أوساط الطلبة؛ فعدد الطلاب يزداد سنوياً؛ بفضل النقاش الداخلي المحتدم حول الإسلام وقضاياه في الولايات المتحدة، وكذلك بفضل ارتباط الإدارة الأمريكية بقضايا الشرق الأوسط والحراك السياسي والصراعات الجارية هناك.

*** ما دورك في الكتاب المزمع نشره مع الدكتور ديفيد لونغ قريباً (المملكة العربية السعودية) الإصدار الثاني؟**

- الإصدار الثاني من كتاب (المملكة العربية السعودية)، الذي دعاني الدكتور ديفيد لونغ إلى المشاركة في كتابته، ركّز بشكل كبير في الجانب الثقافي والأنثروبولوجي للمملكة، المرتبط بشكل دائم بالهوية الإسلامية. كان الإصدار الأول مرتكزاً بشكل أكبر على التاريخ السياسي والاقتصادي للمملكة، أما الآن فقد قمنا بإضافة العنصر الإنساني؛ لمعرفة كيفية تنظيم السعوديين حياتهم، وكيفية اتخاذهم القرارات، والأولويات في حياتهم، وكيفية تأقلمهم مع الحداثة.

*** من خلال بحوثك الميدانية التي شملت البدو في السعودية، وطائفة اليزيديين في العراق وسورية، وقبائل الدنكا في السودان، ما فرص الأقليات في الوطن العربي في الحصول على حقوقها في التعايش السلمي، والمشاركة السياسية في ظلّ**

سيباستيان ميسل

- حصل على درجة الدكتوراه في الدراسات العربية والإسلامية والأنثروبولجيا من جامعة لايبزيك في ألمانيا.
- أستاذ مساعد في الدراسات العربية والشرق الأوسط في جامعة ولاية كراند فالي.
- تتركز بحوثه حول التحولات الاجتماعية بين الأقليات؛ إذ قام بعدد من البحوث الميدانية عن القبائل البدوية في السعودية، واليزيديين في العراق وسورية وألمانيا، وقبائل الدنكا في السودان، وكتب عدداً من المؤلفات عن اليزيديين وتاريخهم وثقافتهم وطقوسهم ووضعهم السياسي، إضافةً إلى عمله مستشاراً في بعض المنظمات اليزيدية وسلطات الهجرة الألمانية.

> ميسل: معظم أقليات العالم العربي تمتلك علاقات راسخة مع حكوماتها، وهي بالضرورة ليست علاقات جيدة، وأي تغير في الحكومات له أثره في وضعها

الربيع العربي؟ وهل توجد مخاوف من تقسيم المنطقة على أسس عرقية أو طائفية؟

- بعدما حصلت على المعرفة الكافية في اللغتين العربية والكردية قرّرت الذهاب في رحلة بحثية إلى أكثر من دولة عربية لدراسة المجتمعات المختلفة في الشرق الأوسط؛ لرصد عاداتهم، وفهم معاناتهم ومظالمهم، ومعرفة طرائق جديدة في تعليم الآخر والتعلّم منه. ومن خلال جميع رحلاتي إلى السعودية والعراق وسورية وليبيا والسودان وبعض الدول العربية الأخرى وجدت شعوباً منفتحةً على الآخر ومضيافةً وواعيةً، أضافوا إليّ كثيراً، وشاركوني في كثير من المعلومات والمعارف، ومعرفة لغتهم واحترام عاداتهم كانا أمرين أساسيين لبناء حوار متّزن معهم. معظم الأقليات في العالم العربي تمتلك علاقات راسخة مع حكوماتها، وهذا لا يعني بالضرورة أن تكون هذه العلاقات جيدة، لكنه يعني بالضرورة أن أيّ تغيّر في الحكومات سيكون له أثره السلبي أو الإيجابي في وضع هذه الأقليات. الحدود السياسية في الشرق الأوسط رسمها المستعمر لتخدم مصالحه؛ مما أدى إلى تقطيع المجتمعات التي تقطن الشرق الأوسط وتقسيمها، ويبدو أنه من الصعب حالياً إعادة رسم هذه الحدود، لكن غياب السلطة المركزية القوية قد يعزّز لدى الأقليات فكرة إقامة مناطق حكم ذاتي، وربما الاستقلال.

*** ختاماً أعود إلى الدكتور ديفيد لونغ: هل من منشورات مستقبلية؟**

- خلال السنوات الماضية قمتُ بكتابة العشرات من الكتب والمقالات، وقمتُ بعدد من المراجعات، لكن بطبيعة الحال فإن المرء يصل -كما هو الحال في جميع مجالات العمل- إلى الوقت الذي يمرّر فيه عمله إلى الآخرين لإكماله، وأظنني وصلت إلى هذه النقطة. في عام ٢٠١٠م قمت بإقناع الدكتور سيباستيان ميسل ليشاركني في كتابة الإصدار الثاني من كتابي (المملكة العربية السعودية)، وكما هو معلوم فنحن الآن نقوم بالعمل الذي يخصّ جزءاً مهماً من الكتاب، وهو إدارة الحج، ونحن بصدد الانتهاء من كتاب آخر، وهو ترجمة كتاب لعمر طوسون من العربية إلى الإنجليزية، وهو كتاب يتناول السودانيين الجنوبيين الذين حاربوا تحت إمرة الضباط المصريين الذين دعموا ماكسيميليان المكسيك في ستينيات القرن التاسع عشر، ويحكي أيضاً كيفية حصولي على النسخة الأصلية من هذا الكتاب من أحد أبناء المقاتلين السودانيين عندما كنت أعمل في السفارة الأمريكية في الخرطوم، ويتضمن كذلك مصادر أخرى عن البعثات الأمريكية إلى تلك المنطقة.

لونغ: ما يثير اهتمامي وإعجابي هو حدوث التطور والإصلاح في السعودية بشكل سلس وتلقائي بلا حروب وتصادمات





ومضات الهجاء الساخر

نورة صالح الشملان
الرياض – السعودية

قال جرير: «إذا هجوتَ فأضحكْ».
ازدهر الهجاء الساخر في العصر العباسي ازدهاراً لافتاً، وإن لم يكن نبتةً جديدةً فإنه قد كثر وأصبح فناً يؤكد مقدرة الشاعر على الابتكار والتجديد وعدم الوقوف عند الصور المألوفة الموروثة التي تعتمد على سلب المهجو القيم الأخلاقية التي تؤمن بها الجماعة، أو وصفه بأبشع الصفات المنفّرة.
أصبح الشاعر يفعل ذلك، لكن بطريقة مغايرة تعتمد على رسم الصورة المضحكة، ولا تعتمد في الأغلب على اللفظ البذيء.
ولعل أبرز الشعراء الذين أسهموا في هذا الفن هم: بشار بن برد، وأبو نواس، ودعبل الخزاعي، وابن الرومي، والمتنبي.

صورة ناطقة للبخل

سنقف في هذه المقالة على نماذج من أشعارهم؛ فمن نماذج ما قال بشار في رجل يقال له: ابن قزعة، واصفاً بخله:

فلا تبخلا بخل ابن قزعة إنه
مخافة أن يُرجى نداه حزين
إذا جئته للعرف أغلق بابه
فلم تلقه إلا وأنت كمين[1]

فلك أن تتخيّل صورة هذا الرجل الذي يعمّه الحزن قبل أن يُسأل، بل مخافة أن يُسأل، وهي صورة تتقابل بشدة مع صورة الكريم الذي إذا جئته لقيك متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله على حد قول زهير بن أبي سلمى. إن بشار رسم لنا صورةً ناطقةً لذلك الرجل الذي بلغ به البخل مبلغاً عظيماً.

ويقول في رجل آخر، هو سهيل بن عمر الرقاشي:

تمركُمْ يا سهيلُ درٌّ وهل يطـ
ـمع في الدرّ من يدي مُتعنّي
فاحبني يا سهيل من ذلك التمـ
ـر نواةً تكون قُرطاً لبنتي[2]

لك أن تتخيّل -عزيزي القارئ- نواةً يابسةً تستخدم لتزيين أذن فتاة، إنها نواة الرقاشي التي دونها قطع الرقاب، ولا يحلم أحد باقتناء تمرة للأكل؛ فلعله يحظى بنواة.



سياط من الهجاء الساخر

أما أبونواس، فقد كان يتمتع بروح مرحة انعكست على شعره الهجائي، فحوّلته إلى طرائف، وكان أبو نواس يشهر هذا السلاح في وجه من يلمس فيه تباطؤاً في العطاء، أو جفاءً في اللقاء، ولا يستثني من ذلك من مدحهم وبالغ في مديحهم، يصوّر ذلك ما قاله في هجاء الخصيب -والي الخراج في مصر- الذي فيه مدائح معتمدة على وسمه بالكرم الشديد، لكن يبدو أن الخصيب أمسك يده، فما كان من أبي نواس إلا أن ضربه بسياط حامية من الهجاء الساخر، يقول:

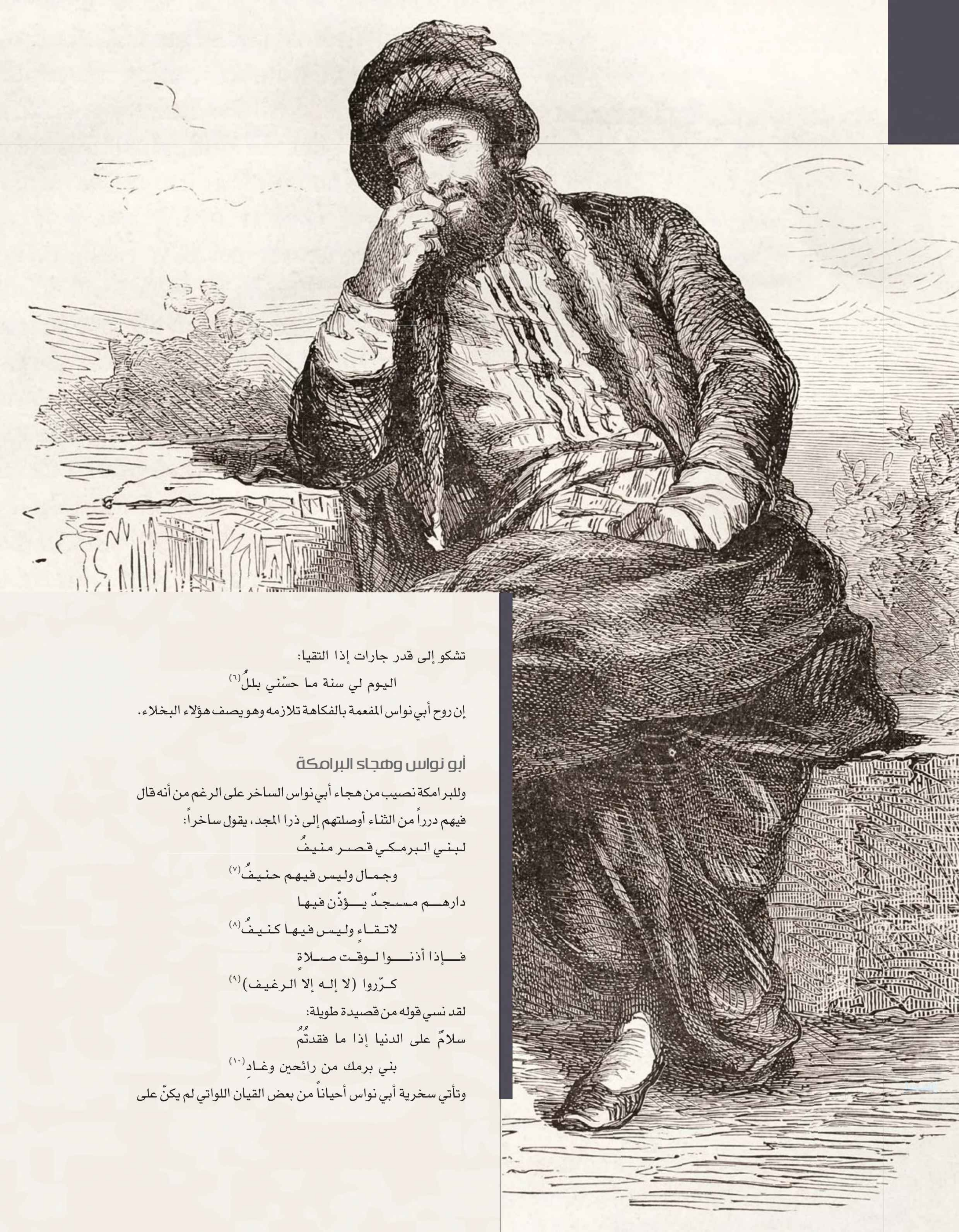
خبز الخصيب معلّقٌ بالكوكب
يُحمى بكلّ مثقب ومشطبِ[3]
جعل الطعام على السغاب محرماً
قوتاً وحلّله لمن لم يسغبِ
فإذا همُ رأوا الرغيف تطرّبوا
طرب الصيّام إلى أذان المغرب[4]

إن الخصيب الذي يتولّى الخراج في مصر، وكان عليه إطعام الجياع، يمنع عنهم ذلك، ويبذله للأغنياء. ويكمن جمال الصورة في اقتران رغيف الخبز بأذان المغرب عند الصائم؛ فهؤلاء الجياع يعيشون في صيام دائم، فإذا لاح لهم الرغيف طربوا. ويتلاقى الضحك بالبكاء في هذه الصورة التي يرسمها لبخيل آخر، هو الفضل الرقاشي، هذه الصورة الناطقة التي تسرق الابتسامة من القارئ كلما قرأ الأبيات:

رأيت الفضل مكتئباً
يناغي الخبز والسمكا
فقطّب حين أبصرني
ونكّس رأسه وبكى
فلما أن حلفتُ له
بأني صائم ضحكا[5]

لقد أبدع أبو نواس في اختيار المفردات التي تعبّر عن المعنى الذي أراده؛ إذ جعل الفضل يناغي طعامه كما تناغي الأم وليدها، ويؤكّد بخله من خلال وصف قدور بيته باللمعان وغير ذلك؛ لأن بيته هجر الطبخ اعتماداً على ما يصله من الآخرين، فيعبّر عن ذلك بقوله:

قدر الرقاشي مضروب به المثل
في كل شيء خلا النيران تبتذلُ



تشكو إلى قدر جارات إذا التقيا:

اليوم لي سنة ما حسّني بللُ(٦)

إن روح أبي نواس المفعمة بالفكاهة تلازمه وهو يصف هؤلاء البخلاء.

أبو نواس وهجاء البرامكة

وللبرامكة نصيب من هجاء أبي نواس الساخر على الرغم من أنه قال فيهم درراً من الثناء أوصلتهم إلى ذرا المجد، يقول ساخراً:

لبني البرمكي قصر منيفُ

وجمال وليس فيهم حنيفُ(٧)

دارهم مسجدٌ يؤذّن فيها

لاتقاءٍ وليس فيها كنيفُ(٨)

فإذا أذنوا لوقت صلاة

كرّروا (لا إله إلا الرغيف)(٩)

لقد نسي قوله من قصيدة طويلة:

سلامٌ على الدنيا إذا ما فقدتُمُ

بني برمك من رائحين وغادِ(١٠)

وتأتي سخرية أبي نواس أحياناً من بعض القيان اللواتي لم يكنّ على

مستوى ما يتطلع إليه من جمال، فيمسخ صورهن، على شاكلة قوله واصفاً قياناً جالسهن عند صديقه موسى:

إذا ما كنت عند قيان موسى
فعند الله أحتسب السرورا
خنافس خلف عيدان قعودٌ
يطوّل قربها اليوم القصيرا
إذا غنّين صوتاً كان موتاً
وهجنَ به عليك الزمهريرا[١١]

ومن هجائه الشعراء قوله في أشجع السلمي الذي يدّعي النسبة إلى قبيلة سليم:

قل لمن يدّعي سُليماً سفاهاً
لست منها ولا قلامة ظفْر
إنما أنت من سليم كواو
ألحقت في الهجاء ظلماً بعمرو[١٢]

واقع شخصي واجتماعي

ودعبل الخزاعي الشاعر الهجّاء الذي لم يسلم أحد من لسانه الحاد، وشتيمته الموجعة التي تبلغ مبلغاً من الإسفاف وتناول الأعراض والوصم بأبشع الموبقات، نجد لديه هجاءً يعتمد على رسم الصورة المضحكة، ومن ذلك قوله لرجل وعده بإهدائه نعلاً وأخلف الوعد، يقول ساخراً ومهدداً:

وعدت النعل ثم صدفت عنها
كأنك تبتغي شتماً وقذفا
فإن لم تهدِ لي نعلاً فكنها
إذا أعجمت بعد النون حرفاً[١٣]

وهجا جاريةً له تدعى غزالاً بهذه الأبيات التي تجرّدها من جميع مقومات الأنثى:

رأيت غزالاً وقد أقبلت
فأبدت لعيني عن مبصقةْ
قصيرة الخلق دحداحة
تدحرج في المشي كالبندقةْ[١٤]

ولم تسلم زوجة دعبل من لسانه الحاد، وسخريته الموجعة، فقال فيها:

يا ركبتي جزرٍ وساق نعامة
وزبيل كنّاس وشدق بعيرِ
يا من أشبهها بحُمّى نافَض
قطّاعةٍ للقلب ذات زفيرِ
صدغاك قد شمطا ونحرك يابس
والصدر منك كجؤجؤ الطنبور[١٥]

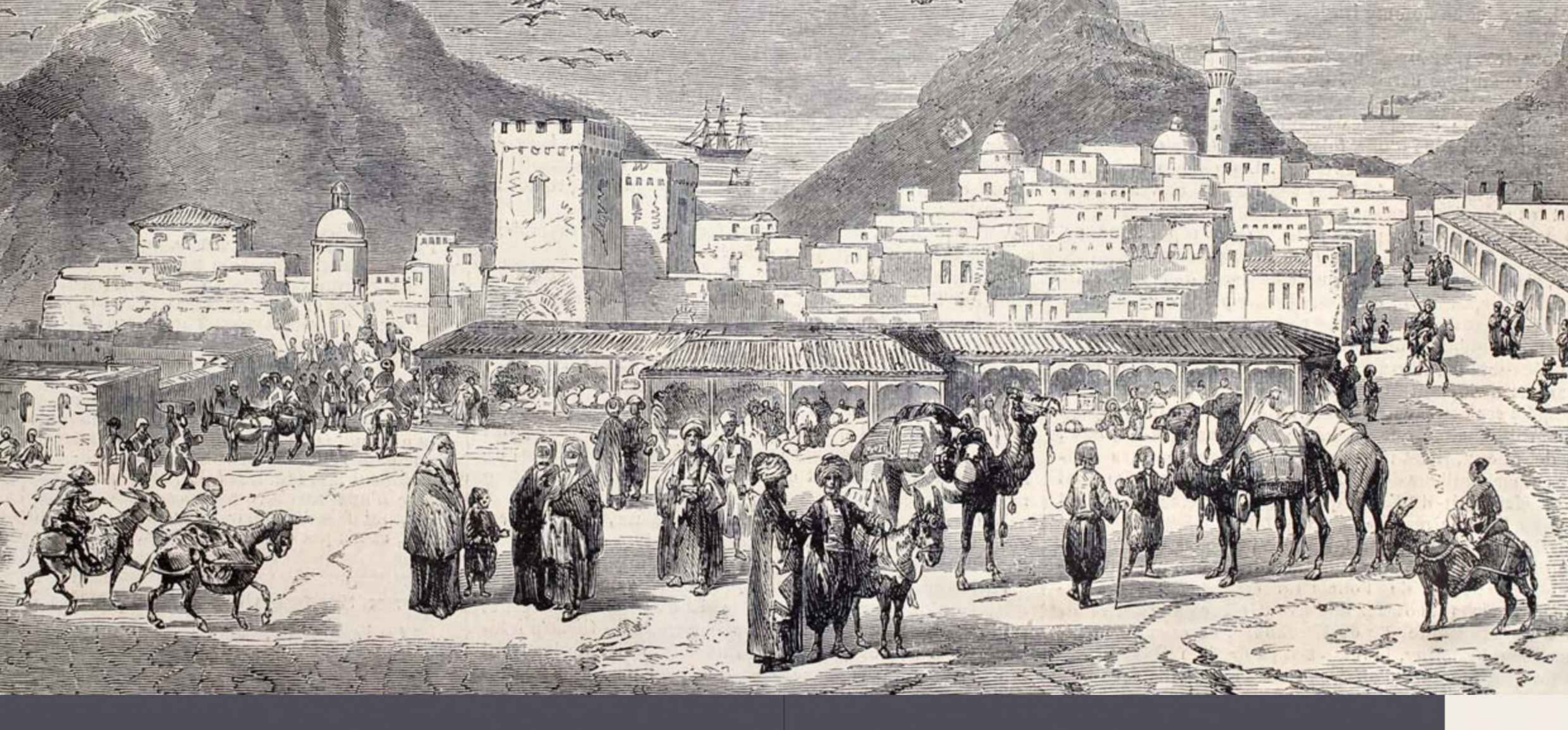
ويتجاوز الشاعر أحياناً الهجاء بدافع شخصي إلى دافع اجتماعي عندما يلاحظ سلوكاً خاطئاً أو عادةً ذميمةً، فيحاربها بالشعر الساخر، ومن ذلك ما قاله البحتري في جارٍ له أكول يزعجه في الزيارة من أجل وجبة دسمة، وإذا علمنا أن البحتري كان مشهوراً بالبخل الشديد استطعنا أن نقول: إن ما يقدمه من شعر ربما هو إسقاط ما في نفسه على المهجو، يقول:

غادياً رائحاً عليّ فما يتـ
ـركني أن أريح أو أن أفيقا
يقتضيني الغداء والشمس لم تبـ
ـزغ طلوعاً ولم تبلّج شروقا
معدة أولية كرحى البزّ
ار يلقي حباً وتلقي دقيقا
ويد ما تزال ترمي بأحجا
رٍ من اللقم تعجز المنجنيقا
صاح بلعومه فقلنا المنادي
صاح في حلقه: الطريق الطريقا
فإذا جيء بالخوان تفزّعـ
ـتُ وأشفقتُ أن يموت خنيقا[١٦]

صور كاريكاتيرية

أما ابن الرومي، بطبيعته الحادة، وتشاؤمه المشهور، جعلاه يميل إلى تقصّي العيوب والإبداع في تصويرها، وكثيراً ما يلجأ إلى رسم صور كاريكاتيرية تنمّ على موهبة وتميز وذكاء ومقدرة فائقة كأنه مصوّر بارع. ومن نماذج ذلك قوله في هجاء حاجب يُدعى عمراً منعه من الدخول على ممدوحه:

وجهك يا عمرو فيه طولُ
وفي وجوه الكلاب طولُ



نماذج مختارة من الهجاء الساخر

❋ قال أبو نواس هاجياً الشعراء الذين يقفون على الأطلال في بلد يرفل بالترف:

قل لمن يبكي على رسم درسْ

واقفاً ما ضرّ لو كان جلسْ

❋ وقال أبو تمام هاجياً أحد رجال عصره:

إن رمت فتلته فامسك بخبزته

فإن موقعها من لحمه ودمه

❋ وقال علي بن الجهم:

بـلاء لـيس يشـبـهـه بـلاءُ

عداوة غير ذي حسبٍ ودينِ

يبيحك منه عرضاً لم يصُنْهُ

ويرتع منك في عرض مصونِ

❋ وقال البحتري يهجو الشعراء الذين أخضعوا الشعر للمنطق، ساخراً منهم:

كلّفتمونا حـدود منطقكم

والشعر يُغني عن صدقه كذبُهْ

والشعر لمح تكفي إشارته

وليس بالهذر طوّلت خطبُهْ

ولا شك أنه يشير إلى اهتمام المناطقة بالتحليل والتعليل مما لا يتناسب مع اللمحة الدالة، والإيجاز الذي يتناسب مع طبيعة الشعر.

❋ وقال أبو الطيب المتنبي ساخراً من كافور، معتذراً لما قدمه له من مدح سابق:

أُريك الرضا لو أخفت النفس خافيا

وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا

أميناً وإخلافاً وغدراً وخسةً

وجبناً، أشخصاً لحت لي أم مخازيا؟!

تظنّ ابتساماتي رجاءً وغبطةً

وما أنا إلا ضاحك من رجائيا

❋ وقال أيضاً في كافور وقومه:

جود الرجال من الأيدي وجودهم

من اللسان، فلا كانوا ولا الجودُ

ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم

إلا وفي يده من نتنها عودُ

❋ وقال في أهل زمانه عامةً:

حولي بكل مكان منهم خِلَقٌ

تخطئ إن جئتَ في استفهامها بمَنِ

ولا أعاشر من أملاكهم أحداً

إلا أحقّ بضرب الرأس من وثنِ

❋ وقال ابن الرومي في أصحاب الحل والعقد في زمانه:

خير ما فيهم ولا خير فيهم

أنـهـم غـيرُ آثـمـي المغتاب

❋ ويبدو أن ابن الرومي ختم حياته بالعزلة؛ إذ يقول:

ذقت الطعوم فما التذذتُ كراحةٍ

من صحبة الأشـرار والأخيـارِ

مـقـابـح الـكـلـب فـيـك طـراً

يـــزول عـنـهـا ولا تـــزولُ

وفـيـــه أشـــيـــاء صـالـحـات

حـمـاكـهـا الله والـرســـولُ

فـالـكـلـب وافٍ وفـيـك غـدر

فـفـيـك عـــن قـــدره نـــزولُ

وقـــد يـحـامـي عـن المـواشـي

ومـــا تـحـامـــي ولا تـصـــولُ

وأنـــت مـــن أهـــل بـيـت سـوء

قـصـتـهـم قـصـــة تـطـــولُ

وجـوهـهـم لـــلـــورى عـظـات

لـكـــن أقـــفـــاءهـــم طـبـــولُ

مـسـتـفـعـلـن فـاعـلـن فـعـولُ

مـسـتـفـعـلـن فـاعـل فـعـولُ

بـيـت كـمـعـنـاك لـيـس فـيـه

مـعـنـى ســوى أنـــه فـضـولُ

والأبيات غنية عن التعليق؛ فقد اعتمد فيها الشاعر التكثيف والاستقصاء، وأنه بعد ذلك لا شيء مثله مثل بيت العروض الذي لا يقود إلى معنى.

إن نفسية ابن الرومي المتّسمة بالتشاؤم والتوجس، وثقافته الفلسفية والمنطقية، جعلتاه يعتمد على المقايسات، فأتى شعره بهذه الصورة الكاريكاتيرية الساخرة، ونجح في تشويه هذا المهجو.

وقد وقف أحد النقاد المعاصرين عند هذه القصيدة، فقال: «أمامنا لوحة فنية رائعة، وتحليل نفسي يكاد فرويد يقصر عن مجاله. تحليل يعتمد على المقارنة بين مظهرين، أو وجهين خارجيين، توصّلا إلى حقيقتين داخليتين تنمّ عنهما الحركات والسكنات والسمات»[١٧].

هجاء المغنين والمغنيات

وكان ابن الرومي يطرب للغناء، فإذا صادف مغنّياً لم يطربه صوته صبّ عليه جام غضبه من خلال صور مضحكة، يقول في أحد المغنين:

يـفـتـح فـــاه مـــن الـجـــهـــاد كـمـا

يـفـتـح فـــاه لأعـــظـــم الـلـقـمِ

أبـــحّ فـيــه شـــذور حـشـرجـةٍ

مـنـظـومـة في مـقـاطـع الـنـغـمِ

نـــبـرتـــه غـــصـــــةٌ وهـــزّتـــه

مثل نبيب التيوس[١٨] في الغنمِ

ولم تسلم المغنيات من سخريته، فقال في إحداهنّ جامعاً لها قباحة الصوت والصورة في بيتين ساخرين:

يضغط الصوت الذي تشدو به

غـصـةٌ في حـلـقـهـا مـعـتـرضـةْ

فـــإذا غـنّـت بـدا في جيدهـا

كـل عـــرق مـثـل بـيـت الأرضـــةْ

وكان ابن الرومي مبدعاً في وصف الأحدب حين قال:

قـصـرتُ أخـادعـه وطـال قـذالـه

فـكـأنـه مـتـربـصٌ أن يـصـفـعـا

وكـــأنـمـا صـفـعـتْ قـفـاه مـــرةً

وأحـــسّ ثـانـيـةً لـهـا فـتـجـمّـعـا

ولا أظنّ أحداً استطاع أن يقارب هذه الصورة المتقنة، وصدق العقاد حين قال: «ومثل هذا الشاعر يهجو حيث يشاء بأداته الحاضرة كالرسام الذي يحمل مصوّرته الشمسية ليلتقط بها المناظر التي تروقه وتسترعيه أينما كان»[١٩].

وأبدع ابن الرومي في وصف الحالة السياسية المتدهورة في زمانه حين سيطر الأتراك على مقاليد الحكم، وأصبح الخليفة رمزاً ينصّب من أجل استرضاء العامة، ويعمل به أقسى الأفعال في الخفاء، وهو لا حول له ولا قوة، يقول:

خـــلـــيـــفـــة في قـــفـــصٍ

بــــين وصـــــيـــــف وبـــغـــا

يـــقـــول مــــا قــــالا لــــه

كـــمـــا تـــقـــول الـــبـــبـــغـــا

ووصيف وبغا هما قائدان من قواد الأتراك الذين يتولون مقاليد الأمور في الدولة العباسية، ولعل الولع بالهجاء قاد الحطيئة إلى عدم الاكتفاء بهجاء الآخرين، بل هجا نفسه؛ إذ قال:

أبـت شـفـتـاي الـيـوم إلا تكلماً

بـسـوءٍ فـمـا أدري لمـن أنـا قـائـلُـهْ

أرى ليَ وجـهـاً شـوّه الله خَـلْـقَـهُ

فـقُـبّـح مـن وجــهٍ وقـبّـح حـامـلُـهْ

المرأة هاجية ومهجوة!!

وهجت امرأة زوجها، وقد أزعجتها رائحة فمه، ففضّلت الموت على البقاء معه بسبب ذلك، فرسمت هذه الصورة المعبّرة:

لو أن المنايا أعرضت لاقتحمتها
مخافةَ فيه إن فِيه لداهيةْ
فما جيفة الخنزير عند ابن مغرب
قتادة إلا ريحُ مسك وغاليةْ

ولم يكتفِ جرير بهجاء الفرزدق، والنيل من نسبه بأبشع الصفات، فتجاوز ذلك إلى السخرية من والدته بقوله:

غليظة جلد المنخرين مُصنّةٌ
على أنف خنزير يُشدُّ نقابها

أيّ بشاعة أكثر من ذلك؟!.

لقد نالت المرأة من الشعراء النصيب الوافر من الغزل الوجداني والتقليدي، ورسموا لها أجمل الصور، وفي المقابل لا يخلو التراث من أبيات تمسخ صورة المرأة، من ذلك ما قاله أحدهم:

ألِمّ بوَطْبَاء في أشداقها سعةٌ
في صورة الكلب إلا أنها بشرُ
حدْباء وقصاء صيغتْ صيغةً عجباً
وفي ترائبها عن صدرها زَوَرُ

ويقول شاعر آخر:

رقطاء حدباء يبدي الكبد مضحكها
قنواء بالعرض والعيْنان بالطّولِ
لها فمٌ ملتقى شدقيْه نقرتُها
كأن مشفرها قد طُرّ من فيلِ
أسنانُها أضعفتْ في خلقها عدداً
مظهّرات جميعاً بالرواويلِ

ويقول شاعر آخر:

لها شعرٌ قردٍ إذا ازيّنتْ
ووجهٌ كبيض القطا الأبرشِ
وثدي يجولُ على نحرها
كقربة ذي الثلة المعْطِشِ

وينظر جرير إلى أم الأخطل فيقول:

لم يجرِ مُذْ خُلقتْ على أنيابها
ماءُ السواك ولم تمسّ طهورا

التعريض أهجى

وهناك شعر كثير ينال من الأعراض مرتكزاً على فساد النساء ننزّه بحثنا عن الوقوف عنده.

ونختم هذه المقالة بما قاله ابن رشيق عن الهجاء: «أنا أرى أن التعريض أهجى من التصريح؛ لاتساع الظنّ في التعريض، وشدة تعمق النفس به، والبحث عن معرفته، وطلب حقيقته، فإذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به النفس علماً، وقبلته يقيناً»[٢٠].

الهوامش والمراجع

(١) ديوان بشار، ص٢٢١.
(٢) ديوان بشار، ص٥٤.
(٣) المثقب: الرمح، والمشطب: السيف.
(٤) ديوان أبي نواس، ص٤٨١، ٤٨٢.
(٥) ديوان أبي نواس، ص٤٨٣.
(٦) ديوان أبي نواس، ص٤٧٧.
(٧) الحنيف: المسلم.
(٨) الكنيف: حفيرة من خشب وعشب تتّخذ للإبل لتقيها الريح والبرد.
(٩) ديوان أبي نواس، ص٥٥٥.
(١٠) ديوان أبي نواس، ص٥٤١.
(١١) ديوان أبي نواس، ص٥٤١.
(١٢) ديوان أبي نواس، ص٥٤٥.
(١٣) أي: نغلاً مكان نعل. والبيت في ديوان الخزاعي، ص١٠٧.
(١٤) ديوان الخزاعي، ص١١١.
(١٥) ديوان دعبل، ص٨٩. والجؤجؤ: الصدر.
(١٦) ديوان البحتري، ج٢، ص١٥٥.
(١٧) الموسوعة الأدبية الميسرة، خليل شرف الدين، ص١٤٨.
(١٨) نبّ التيس: صاح، والنبيب: الضجيج.
(١٩) مراجعات للعقاد، ص١٥٦.
(٢٠) العمدة، ج٢، ص١٧٣.

قصيدة

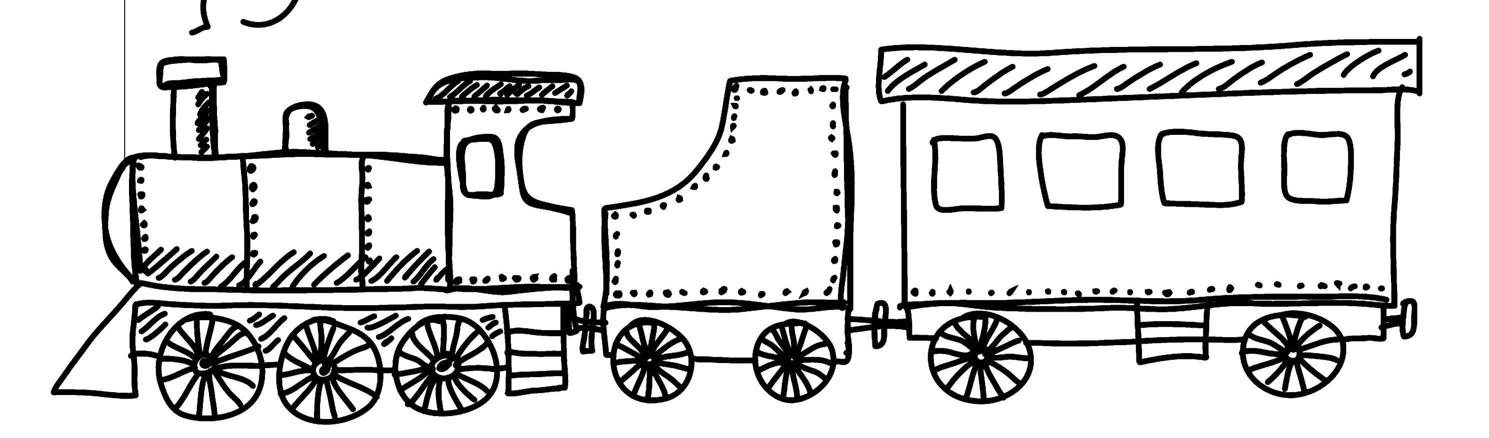
القطار

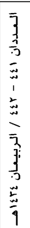
كمال حسين فهمي نشأت

القاهرة – مصر

مَن علّم الأنغام أن تنتهي
وتترك الأصداءْ؟!
مَن علّم اللفظة أن تعيشْ
في حسّنا أضواءْ؟!
مَن علّم الشموس والزهور والبحارْ
عبورها عينيك حين نوّح القطارْ
ودقّت الأجراس من بعيدْ؟!
يا وطني الوحيدْ
يا ملجئي.. منفاي
يا صوتي الضائع في دوامة الأصواتْ
ونوّح القطارْ
أحسستُ نارَ نجمةٍ تحوّلت رمادْ
وريقة ساقطة
مجهولة الميلادْ
وكنتُ في الربيعْ
أتذكرين رحلة الربيعْ؟!
الشمس.. والنسيم والحشائش المرنّحةْ
عواطف مفتّحةْ
تفجّرت أنوارْ
وحبّنا الـ...
ونوّح القطارْ
وصوته يدقّ في مشاعري أسوارْ
ووجهك الغيمي.. والصفير.. والغبارْ

في مقلتي دوار
سبتمبرٌ وعريه يفترشان غصننا
يرعشه المطرْ
ونحن في بداية الشتاءْ
ونوّح القطارْ
ما يربط الصفير بالنحيب والمطرْ
ورعشة تموج كبرياءه
تجعّد الدماءْ
أتذكرين ضجعة الحشائشْ
وغيمةً بيضاءْ
وطائرين في الفضاء سابحينْ؟!
وقلتِ في اتكاءةٍ مدلّلةْ:
يا ليتنا مثلهما هناك
كنقطتين فوق مخمل ازرقاقْ
ونوّح القطارْ
ولم نَعُدْ نطيرْ
ولم نَعُدْ نسمع غير وحشة الصفيرْ
نفّاذة الأنينْ
تغوص في أعماقنا سكينْ
ولم تَعُدْ
من شوقنا.. أو دمعنا أو فرحنا
هُنيهة اخضرارْ
سوى رماد نائحٍ
في صرخة القطارْ..





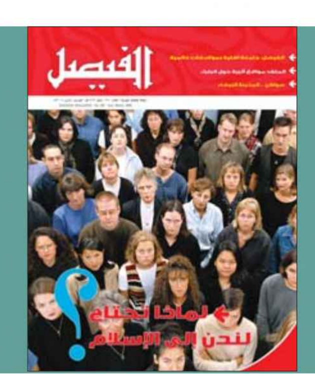
التازي بعد ابن بطوطة في سواكن السودان



محمد أحمد الحيدرابي
الرياض – السعودية

في ليلة شاتية من ليالي (فبراير) عام ٢٠١١م، وفي استرخاءة أمام الشاشة الفضية وأنا أتصفح المحطات الفضائية التي طفت عبرها أرجاء القرية الكونية من أقاصيها إلى أقاصيها، أتابع عدداً من الأحداث التي تعجّ بها، حينما ثنى الله لي الوساد في قناة (اقرأ)؛ لأسمع وأرى ما يدور فيها من حديث دون سابق علم بالمتحدث أو موضوع الحديث، فإذا أنا أمام شيخ يتوشّح زياً مغربياً أصفر فاقعاً لونه يسرّ الناظرين، تبدو عليه علامات الوداعة والوقار. فحدثتني نفسي أن أتريّث قليلاً لأسمع بعض الذي يقول، فوضعت جهاز التحكم من بعد جانباً، وأصغيت، فانساب إلى سمعي حديث شجيّ عن الرحالة المسلم الفقيه ابن بطوطة، فكان مجمل ما اقتبسته منه في تلك اللحظة قوله: «قال ابن بطوطة: لا تبحثوا عني في قبري الذي في التراب، وابحثوا عني في قلوبكم؛ فإذا وجدتموني فيها فذلك يكفي»، فشدني هذا القول، وأثار دهشتي وانتباهي، ولفت نظري نحو المتحدث لأقرأ اسمه على الشاشة، فإذا هو الأستاذ الدكتور عبدالهادي التازي، فتنفست الصعداء، وحمدت الله أن منّ عليّ برؤيته؛ لأنني لم أتشرف بذلك من قبل، وكما يقولون: ربّ مصادفة خير من ميعاد.

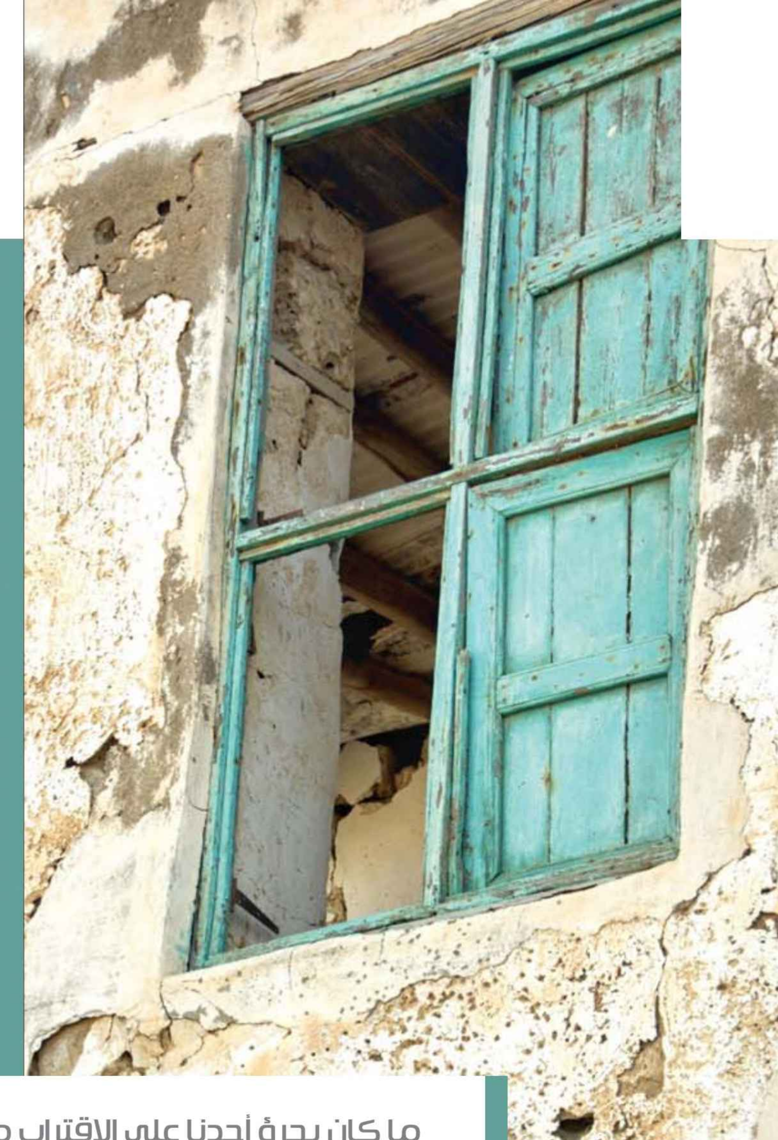
عندها عادت بي الذاكرة إلى تعليقه المنشور في مجلة (الفيصل) في العدد ٤٠٧-٤٠٨ الجماديان ١٤٣١هـ/ إبريل- مايو ٢٠١٠م بعنوان: ابن بطوطة في سواكن السودان، تعليقاً على مقالي الذي سبق أن نشرته (الفيصل) في عددها ٣٨٠ صفر ١٤٢٩هـ/ فبراير- مارس ٢٠٠٨م بعنوان: سواكن المدينة البيضاء، وعنوان تعليقه هو الذي أوحى إليّ بعنوان الردّ الذي أدبج سطوره الآن.



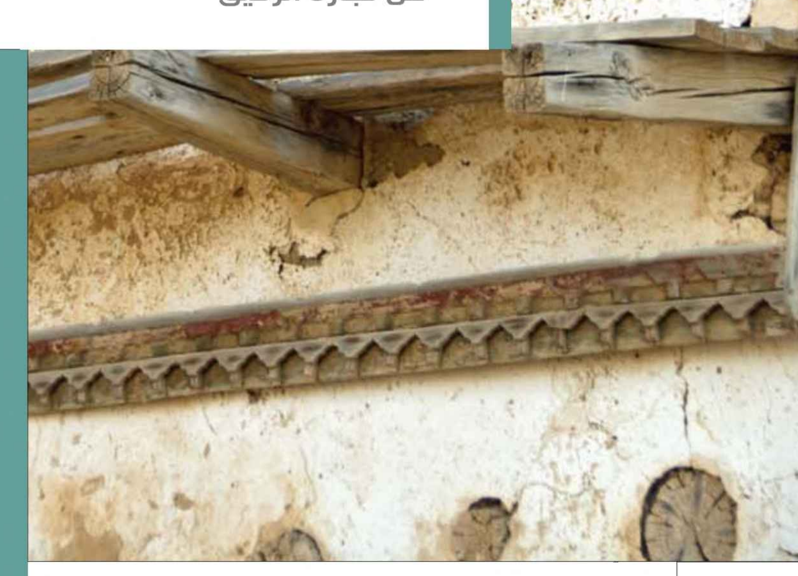


اهتمام التازي بابن بطوطة

لأن عبدالهادي التازي مفكّر ومؤرّخ مغربي متخصّص في أدب الرحلات والرحالين عامةً، ورحلة ابن بطوطة خاصةً، كان له الشرف في إنجاز تحقيق رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، تأليف: شمس الدين أبي عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي. عكف على تحقيقه في إطار أكاديمية المملكة المغربية، معداً مقدمته، وواضعاً خرائطه وفهارسه، فنشر التحقيق في خمسة مجلدات ضمن مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث، سنة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م. ليس هذا فحسب، بل تتواصل أبحاثه في هذا الإطار من دون توقف، ولديه تحت الطبع من لدن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (اكتشاف غير مسبوق)، وهو بحث قدم إلى مؤتمر مجمع اللغة العربية في دورته السبعين، ٢٨ مارس ٢٠٠٤م، ولأكاديمية المملكة المغربية (حديث الخميس) ٢٩ إبريل ٢٠٠٤م، ولمجمع اللغة العربية بدمشق (ابن بطوطة في زيارة ثانية لدمشق). ومن مبادراته في هذا المجال نداءاته المتكررة لإنشاء متحف لابن بطوطة، تجمع فيه كلّ متعلقاته من مختلف المواقع، وهو أول من أبدى استعداده لفعل ذلك. وما يؤكد صدق توجّهه قوله لـ(الجزيرة نت): «ابن بطوطة وجد مكانه في القمر رغم رحيله منذ سنين، فكيف لا يجد مكانه في أرضه وبلاده التي خرج منها وعاد إليها بثروة كبيرة من المعارف والمشاهدات»، وأضاف: «إن الهيئات العلمية العالمية التابعة للأمم المتحدة أطلقت اسم ابن بطوطة على خطوط القمر»، وتساءل قائلاً: «كيف لا نخلّد ذكره بمتحف ومرصد؟! وكيف لا نهتم به وقد ترجمت أعماله إلى أكثر من ٥٠ لغة؟!». ولا يفوتنا أن نذكر أنه كان يرأس المؤتمر العلمي السادس للأسماء الجغرافية في نيويورك منذ عام ١٩٩٢م. ومما خلّد به ذكر ابن بطوطة جوائز ابن بطوطة لأدب الرحلة، وصدور مجلة (الرحلة)، وبدء مشروع (مخطوطة عربية كل يوم) على موقع (الوراق).



ما كان يجرؤ أحدنا على الاقتراب من باب شرق السودان؛ خوفاً من مغبة الاختطاف، وكان ذلك خوفاً غُرس في نفوسنا من جراء الشائعات والأحاجيّ عن تجارة الرقيق



ولعلم القارئ الكريم أقول: كان تعليقه إطلالةً جميلةً، وهو إطراء ومدح وإعجاب بما كتب عن سواكن، ومربط الفرس عنده في المقال ما ذكرته عن زيارة ابن بطوطة لسواكن عام ١٣٥٢م، مستشهداً بما ذكره عن صعوبة الحصول على ماء الشرب في معرض حديثي عن مشكلة المياه فيها. فراجعت سيرته العلمية، فلم أستغرب ذلك حين علمت أن أحد إنجازاته في مجال التحقيق هو مخطوط ابن بطوطة المسمى (تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، وإذا عُرف السبب بطل العجب؛ فله مني جزيل الشكر والتقدير لإرشاداته ونصحه لي بإعادة قراءاتي في ذلك المرجع لتعرّف المزيد مما ذكره عن هذه المدينة، وأنا بدوري أعده بذلك، خصوصاً أنني عقدت العزم على تأليف كتاب عنها متى تيسّر الأمر لذلك، ولا يسعني إلا أن أكرّر شكري له، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله. ولا شك أن هذه سانحة كريمة أبوح بها لعالمنا الجليل ببعض ما في مخيّلتي عن ذكرياتي الثرّة عن تلك المدينة، ولي عدة وقفات إزاء ذلك أسردها على النحو الآتي:

أيام الصبا

تتعلّق وقفتي الأولى بأيام الصبا، وهي حقبة أصبحت فيها الذاكرة مترعةً بأحداث وذكريات جميلة مازالت عالقةً بالذهن كأنها أحداث الأمس القريب، وكيف لا وهي مسقط رأسي ومرتع صباي؟!. وهي حقبة ما كان يجرؤ فيها أحدنا على الاقتراب من باب شرق السودان؛ خوفاً من مغبة الاختطاف، وكان ذلك خوفاً غُرس في نفوسنا من جرّاء الشائعات والأحاجيّ التي كنا نسمعها عن تجارة الرقيق -في أيام ازدهارها- إلى الجزيرة العربية عبر ميناء سواكن، وأن المختطف تنقطع صلته بأهله إلى أبد الآبدين. لكن كانت لنا سلوة عن الدخول إلى سوق المدينة في قدوم قطار الركاب إلى المحطة الواقعة غرب باب شرق السودان، وفي الساحة الشرقية منها يتم إعداد السوق المؤقت، ويوم مجيء القطار يوم مشهود لتجمع جمع غفير من السكان يفدون فيه إلى المحطة من كلّ حدب وصوب. ومن الروايات الطريفة المتناقلة بين الناس عن ذلك الحراك المتوجّه نحو المحطة أن اثنين من شباب البجا انتهزا هذه الفرصة المواتية، وركبا موجة الحراك، وتقفّيا آثار إحدى غانيات الجزيرة وهي تسير برفقة أمها، وأخذا يتغزّلان بمحاسنها بلغتهم البجاوية؛ اعتماداً على أنهما لا تفقهان حديثهما، وبعد لحظات قصيرة ردّت عليهما والدتها ببجاوية فصيحة بقولها: يا أبنائي، هذه مثل أخواتكم، فهل ترضون ذلك لأخواتكم؟! فألجمت الدهشة لسانيهما، وما كان منهما إلا أن ولّيا مدبرين.

هذه فئة من الفئات المهرولة إلى محطة القطار في ذلك اليوم، ومنهم كذلك المستقبلون والمودعون، إضافةً إلى التجار الذين يحرصون على بيع بضائعهم، وأصحاب وسائل النقل المتمثّلة في عربات الكارو التي تجرّها الحمير. وهو سوق مشهود، وزمنه موقوت بمدة بقاء القطار في المحطة؛ إذ يتم إنزال الركاب الآتين، ثم يذهب إلى محطة جراهم على ساحل البحر للتزوّد بالوقود والماء، وهي محطة مزوّدة بقضيب دائري يمكّنه من الاستعدال في اتجاه طريق العودة؛ ليحمل الركاب الجدد إلى تقاطع محطة سلوم، ومنها إلى بورت سودان؛ فالمحطة تقع قبالة باب شرق السودان من الناحية الغربية. وكما أسلفنا هو يوم مشهود؛ إذ يتوافد المسافرون من كبار التجار وعلية القوم، وتحديداً سكان الجزيرة بملامحهم الواضحة للعيان، ومن

> كان عزاؤنا عن سوق الداخل السوق المؤقتة التي تدوم حتى مغادرة القطار، وهي سوق بها ما يسر النفس، ويلذّ الأعين



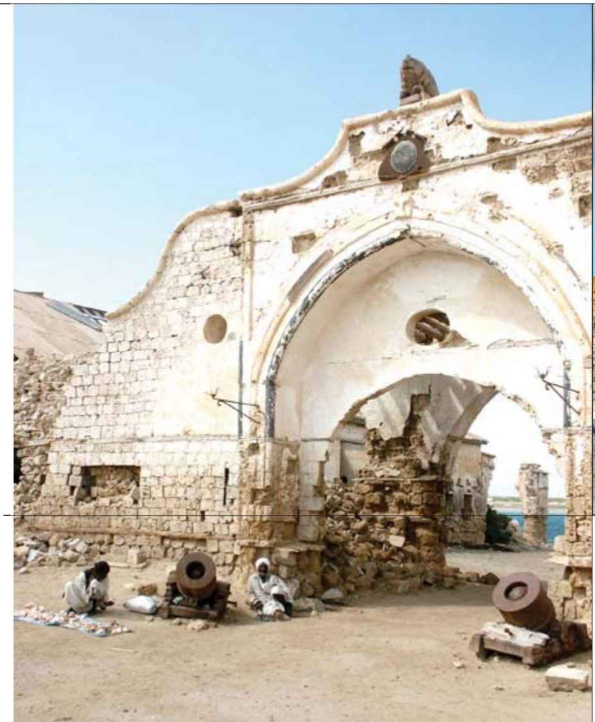
الناس من تشغلهم مناظر الأسر الثرية ذات الأبهة والفخار عن بقية المشاهد، وهؤلاء يبدأ مشوارهم عادةً من الجزيرة عبر بوابة كتشنر عند مدخل الجزيرة، والسير عبر طريق يخترق الأسواق إلى باب شرق السودان وهم تحفّ بهم حواشيهم من الخدم والحشم حتى الوصول إلى المحطة التي تقع على مقربة منه؛ ليرفعوا رحالهم إلى العربات المحجوزة لهم مسبقاً.

أما نحن الصبيان، فعزاؤنا عن سوق الداخل هذه السوق المؤقتة التي تدوم إلى حين مغادرة القطار، وهي سوق نجد فيها ما يسرّ النفس، ويلذّ الأعين، من الملابس والألعاب البسيطة. ومن ضمن مقتنياتنا من هذا السوق كنّا نلبس الثوب السعودي، والغترة البيضاء، والعقال البحريني الذهبي المقصّب، والصديري المطرز بالألوان الزاهية، وذلك يملأ نفوسنا بالزهو والسرور والافتخار الذي ينعكس في حراك دؤوب ونشاط متناهٍ، فنقطع مساحة السوق جيئةً وذهاباً، ويصدف أن يقع بعضنا على أبسطة البضائع، فينهض من توّه لمواصلة اللعب واللهو، وتلك حالة ينطبق عليها قول شاعر المهجر إيليا أبو ماضي:

وطـــن الـــنـجـــوم أنـــــا هـنـا
حـــــدّق، أتــذكـــر مـــن أنــــا؟!
ألمـــحـــت في المـاضـــي الـبـعـ
ـــيـد فـتـى غـــريـــراً أرعـنـــا
جــــذلان يمـــــرح في الحـقـو
ل وكـالـنـسـيـم مـدنـدنـا؟!

والسوق محدود المساحة، ويتخذ موقعاً وسطاً شرق المحطة، تاركاً مسافةً معقولةً بينه وبين القطار لسهولة حركة المسافرين والمودعين، وهو حصر وأبسطة متجاورة تفرش عليها البضائع. وعندما يؤذن مؤذن المغادرة يطلق القطار صفارة الإنذار الأولى، وعندها يُصاب الناس بموجة من الحراك المتسارع. هذا مسافر لا همّ له سوى ركوب القطار، وهذا تاجر يريد أن يحصل على قيمة ما باع من مسافر يتربّع داخل القطار، وهذا مودّع يسارع بالنزول وهلمّ جراً. وفي أثناء ذلك الحراك المحموم تنطلق الصافرة الثانية فالثالثة، ويبدأ التحرك البطيء، وتزداد سرعته تدريجياً، ويبتعد من الأنظار رويداً رويداً، وأدخنته السوداء تتصاعد إلى عنان السماء حتى يختفي عن الأنظار تماماً. تلك لحظات عصيبة بالنسبة إلينا؛ إذ تنقطع حركتنا، ونلتقط أنفاسنا، وترنو أعيننا إلى متابعة مسير القطار حتى يختفي وراء الأفق البعيد ونحن يحدونا الأمل في حضور أوبته لوصل ما انقطع من لهونا، بل تحلّق





بنا الأحلام والأمنيات الوردية بأن نكون يوماً ما من ركّابه؛ لنسعد بمتعة السفر، وذلك من قبيل خداع النفس للنفس. أما الآخرون، فبالنسبة إليهم هي لحظة ينفضّ فيها سامر السوق؛ فالتجار يأخذون بقية بضائعهم إلى دكاكينهم في داخل السوق، والمودّعون يسلكون طريق العودة إلى منازلهم، وكذلك المسافرون يستعينون بوسائل المواصلات المتوافرة، المتمثلة في عربات الكارو التي تجرّها الحمير، يحمّلونها عفشهم، ويتبعونها سيراً على الأقدام. ونعود نحن بثيابنا القشيبة من تلك الملابس إلى منازلنا ظافرين غانمين، فننزعها عنا، ونحفظها لمعاودة لبسها في موعد عودة القطار؛ لنكمل بقية يومنا في اللهو واللعب بين البساتين والحدائق الغنّاء، نأكل من ثمرها، ونتسابق في اصطياد الطيور إلى مغيب شمس ذلك اليوم كعادتنا المتعارف عليها في الأيام العادية.

تلك الحدائق والبساتين حدّثتنا عنها روايات الأجداد والآباء وحكاياتهم، من أن جذور هذه الأسرة الكريمة كانت تمتهن الرعي، وتطوي الصحارى والفيافي والقفار سعياً وراء أنعامهم؛ بحثاً عن الكلأ والماء، وكانت آبار جسر الشاطة مورداً من موارد مائهم، وكانت مملوءة بالغابات الكثيفة. وعندما جاء الحاكم التركي قدّم إغراءات جاذبة لهم، وأعلن رسمياً من يقوم بـ(كبر)؛ أي: إزالة، تلك الغابات، واستصلاح الأراضي للزراعة، ستسجّل له تلك المساحات ملكاً حراً. وبين طرفة عين وانتباهتها تحوّلوا من الرعي إلى الزراعة، وأصبحوا من سكان الأحياء التي تقع خارج سور المدينة.

غربة الدراسة

ثانية هذه الوقفات كانت عندما شببنا عن الطوق، وبلغنا سنّ الالتحاق بالدراسة النظامية التي تلي الدراسة في الخلاوي (مدارس تحفيظ القرآن)، وكانت المدرسة الوحيدة الموجودة بالمدينة هي مدرسة سواكن الأميرية، وهي أول مدرسة افتتحت في مجال التعليم النظامي سنة ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م، ويكفيها شرفاً أن تخرّج فيها كثير ممن كان لهم دور بارز في خدمة السودان، ونذكر منهم، على سبيل المثال لا الحصر: الرئيس الأسبق إبراهيم عبود. ولسوء حظي لم يحالفني الحظّ في تلقّي تعليمي الابتدائي في مدرستها الفريدة معنًى ومبنًى، وكان أن درست في مدرسة داخلية في مدينة تهاميام قرب تقاطع محطة هيا، وهي مدينة ينمّ اسمها على مدى المعاناة التي يلقاها سكانها من ملوحة مياه الشرب؛ إذ يعني اسمها بلغة البجا البيداوييت (ذات الماء المر). ثم انتقلنا إلى المرحلة المتوسطة في بورت سودان الأميرية. وعلى الرغم من البعاد كانت الأشواق تملأ النفس للعودة إلى مراتع الصبا في أثناء الإجازات المدرسية. وفي إحدى هذه الإجازات عُدت إليها، وعندما كنت في طريقي إلى حي الشاطة التقيت ابن عم لي حالفه الحظ في تلقّي تعليمه في مدرستها. وكعادتي عند القدوم إليها استفسرت منه عن أخبار المدرسة ومعلّميها كأنما ليس هناك ما يهمّني فيها سوى هذه المدرسة، فكانت المفاجأة هذه المرة أنه أخبرني أن الأستاذ حفّظهم قصيدة عن سواكن، فجذب ذلك انتباهي، فطلبت منه أن ينشد لي أبياتاً مما حفظه منها، ففعل ذلك، فطلبت منه أن يعيدها عليّ ثانيةً وثالثةً؛ حرصاً مني على حفظها؛ حتى لا تتفلّت مني، والأبيات هي:

حـــيِّ الــطــلــول الــبــالــيــة
واســكــب دمــوعــك غــالــيــةْ
وتــغــنَّ بــالــلــحــن الــحــزيــ
ــن عــلــى الــديــار الــخــالــيــةْ

كان مجيء القطار إلى أم درمان مشهوداً لتجمع جمع غفير من السكان يفدون فيه إلى المحطة من كلّ حدب وصوب

دأب أم درمان مع كلّ من يقترب منها، ولو عن طريق السمع من دون أن يمتع ناظريه برؤيتها، الإسهاب في الكتابة عنها

سيرة حافلة

تشير المصادر إلى أن مولد عبدالهادي التازي كان في ١٥ يونيو ١٩٢١م، ومسقط رأسه هو مدينة فاس. نال شهادة العالمية في سنّ مبكرة من جامعة القرويين عام ١٩٤٧م، وعيّن أستاذاً بها عام ١٩٤٨م، ونال دكتوراه الدولة من جامعة الإسكندرية عام ١٩٧١م، وكان موضوع أطروحته جامعة القرويين. في المجال السياسي، عمل سفيراً للمملكة المغربية لدى ليبيا والعراق وإيران والإمارات العربية المتحدة، وعمل مديراً للمعهد الجامعي للبحث العلمي بالرباط، كما ساهم في تأسيس كلّ من: أكاديمية المملكة المغربية، واتحاد كتّاب المغرب، ورأسه ومثّله في كثير من المؤتمرات. وفي إطار الهيئات الثقافية له عضوية في عدد منها، نذكر على سبيل التمثيل لا الحصر: المجمع العلمي العراقي ١٩٦٦م، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٧٦م، والمعهد العربي الأرجنتيني ١٩٧٨م، ومجمع اللغة العربية الأردني ١٩٨٠م، ومجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٦م، والأكاديمية الهاشمية بالأردن. إضافةً إلى ذلك استهوته مهنة الصحافة منذ خمسينيات القرن الماضي عندما رأس وفد اتحاد الكتّاب المغربيين لحضور مؤتمر الأدباء العرب في الكويت عام ١٩٥٨م، وتزامن ذلك مع احتفالية مجلة العربي بيوبيلها الذهبي، فسنحت له فرصة المشاركة فيها. وبادر إلى المساهمة في تحريرها منذ عددها السادس الصادر في مايو ١٩٥٩م، الذي نشر له مقالة عن جامعة القرويين بفاس، وعندها كان مراسلاً لها من المغرب. وكذلك له كثير من المقالات في مختلف الإصدارات الثقافية، خصوصاً مجلة (الفيصل).



هـذي سـواكـن قـد بـدت
مـثـل الـعـروس الـبـاكـيـةْ
تـخـتـال في أسـمـالـهـا
أسـمـال مـاضٍ واهـيـةْ
والـبـحـر في أنـحـائـهـا
يـصـغـي بـأذن واعـيـةْ
ويـضـم أطـراف (الجـزيـ
ـن) كـالـرؤوم الحـانـيـةْ
يـا غـادة عـصـفـت بـهـا
ريـح الـزمـان الـعـاتـيـةْ
مـنـي إلـيـك تحـيـتـي
رغـم الأسـى وسـلامـيـةْ

هذه أبيات تُليت عليّ وأنا في قارعة الطريق فحفظتها عن ظهر قلب على مدى ثلاثة عقود من دون أن أتمكّن من معرفة شاعرها، ومن دون أن أعرف عدد أبيات القصيدة، حتى قيّض الله لي أحد أبنائها، وربيب أحيائها، وهو الأديب والشاعر إبراهيم شلية (أبو صالح)، فأمدّني بصورة مما أهداه إليه الأخ محمد أحمد عبدالقادر، الذي تمكّن من إعداد سفر جمع فيه معظم القصائد التي قيلت عن سواكن، فجزاهما الله عني كل الخير، ولهما من الشكر أجزله. وبذلك علمت علم اليقين

مدرسة سواكن الأميرية، أول مدرسة افتتحت في مجال التعليم النظامي سنة ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م

من آثار سواكن المسجد الذي بنته شجرة الدر، وبوابة الجمارك التي يربض على قمتها الأسد، وقصر الكابلي، وقصر الميرغني، وقصر الشناوي

أن عنوان القصيدة هو (ذكرى سواكن)، وشاعرها هو الشاعر المخضرم مبارك المغربي، رحمه الله، وما تلقّيته منها ثلاثة وثلاثون بيتاً. لكن ظلّ في النفس شيء من إحساس غريب لمواصلة البحث، فاستدللتُ منذ زمن قريب على موسوعة الشيخ عبد اللطيف البابطين الشعرية، فعثرت فيها على سيرة كاملة عن شاعرها بوصفه أحد الشعراء العرب الذين نالوا جائزة البابطين في جودة الشعر. ومن النماذج التي اختيرت من قصائده قصيدة (ذكرى سواكن)، فكانت المفاجأة الكبرى أن وجدت أن عدد أبياتها خمسة وخمسون بالتمام والكمال. وهذا الفتح المبين بالعثور على هذا الكمّ من المعلومات أثلج صدري؛ إذ عثرتُ عليها بعد بحث مضنٍ ومتواصل استمر قرابة أربعة عقود، فحمدت الله على ذلك.

وهنا لا بد من وقفة عند مشاعر شاعرها المتدفقة نحوها؛ فقد بيّنت سيرته أنه عمل بها ردحاً من الزمن وهو ضابط سجون في سجن سواكن العمومي، وفي زمن كان لا تزال فيها بقية من ازدهارها وبهائها وجمالها الأخّاذ، فقضى في حجر الجزيرة ليالي سمر جميلة في أجواء أقرب ما تكون إلى الأجواء الأوربية بين مقاهيها ونوافيرها وموسيقاها التي كانت تعزف للترفيه عن الجنود. لكن سرعان ما اختطفته يد الخدمة المدنية التي لا ترحم من يقع اختيارها عليه من موظفي الخدمة المدنية، فكان الفراق الحزين. ويمرّ الزمن سراعاً، ويعود إليها زائراً



وفي مخيّلته الصورة الجميلة التي تركها فيها، فإذا هو أمام أنقاض بالية من ركام قصورها الزاهية، فتتحرك في نفسه لوعة الشاعر المرهفة، فيقف على أطلالها باكياً، ويتشبّب بمحبوبته الغالية، ومما ورد في القصيدة في هذا الصدد قوله:

وإذا بقلبي فجأة
تسطو عليه غانيةْ
خرجت تتيه بحسنها
في مشية متهاديةْ
ناديتها لكنها
لم تستجب لندائيةْ
ومضت تشيح بوجهها
عني وعن إعجابيةْ
ومضيت إثر جمالها
إثر العيون الداعيةْ
خبّرتها أني فتى
عفّ يصوغ القافيةْ
فتبسّمت وتقدمت
نحوي بنفس راضيةْ
يا موطن السحر المقيـ
ـم أما شجاك غنائيةْ؟!
أعلمت أنك في دمي
رغم الديار النائيةْ؟!

وفي أثناء هذه الأوصاف السكرى والمتيمة يشدّ انتباهه الواقع الأليم للأطلال والأنقاض التي أمامه، فإذا بنا أمام آهات وزفرات حزنه العميق الذي عبّر عنه بالأبيات الآتية:

هل من جديد مشرق
يحيي الرفات الفانيةْ
ويعيد أيام الصبا
والفاتنات كما هيةْ
ويعيد مجداً قد يُعا
د إذا العزائم ماضيةْ؟!
إن كنت تذكر وقفتي
هذي وتذكر حاليةْ

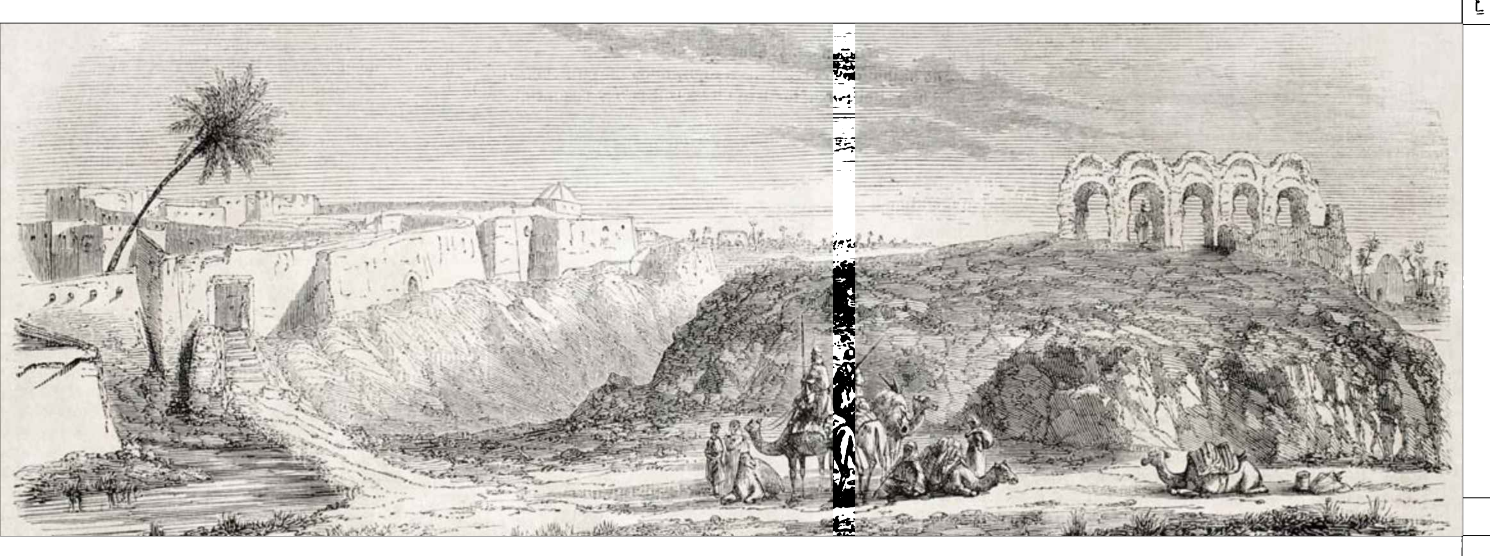
فـــاذكـــر عـلـــى مـــرّ الـــزمـــا
ن شــعــور نـفــس وافــيـــةْ
لـــو يُـفــتـــدى ذاك الـــترا
ث فــديــتـــه بـحــيــاتــيــةْ
قـــد شــغـفّـنـــي وجـــدٌ بـهـا
ولـــهـــا بـــذلـــتُ فـــؤاديـــةْ

معالم لا تنسى

تتزامن ثالثة الوقفات مع انتقالنا إلى المرحلة الثانوية في مدرسة المنار ببورت سودان، التي فتحت أمامي آفاقاً جديدة لتعرّف كثير من معالمها من كثب، خصوصاً الموجودة منها داخل الجزيرة، عبر رحلات منظمة تحت إشراف المدرسة. ومما وقفت عليه من آثارها المسجد الذي يُذكر أن بناءه تمّ بتوجيه من الملكة الفاطمية شجرة الدر، وبوابة الجمارك التي يربض على قمتها الأسد، وقصر الكابلي والد الفنان المبدع عبدالكريم الكابلي، وقصر الميرغني، وقصر الشناوي، وكثير من المعالم الأخرى التي لا يتسع المجال لذكرها. أما خارج الجزيرة، فتعرّفت قصر الشناوي، وهو أنقاض مبنى ضخم كان وكالة تجارية تابعة لخديوي مصر، والشناوي هو وكيلها على الرغم من الروايات الكثيرة التي تواردت عنه. يُضاف إلى ذلك مبنى المدرسة الأميرية السالفة الذكر، والمحلج، والسجن العمومي. كما تعرّفت متحف التراث البجاوي، ومؤسسه سعادة العم محمد نور هداب، والمتنزه البحري الذي أنشأه جنوب الجزيرة لاستقبال هواة الغوص لتهيئة متكأ لهم للراحة وتناول الطعام واستخدام الإنترنت. وفوق هذا وذاك سرّني علمي أن هناك متحفاً بحرياً مزمعاً إنشاؤه، وعنوانه على الإنترنت: www.sawakinmm.com، ولا شك أن في ذلك إحياءً للسياحة في المدينة.

أساطير وحكايات

كانت وقفتي الرابعة في رحاب جامعة الخرطوم؛ إذ كلّفتنا أستاذة اللغة الإنجليزية في إحدى محاضراتها كتابة موضوع اجتماعي بسرد الروايات والأساطير المتناقلة بين العوام، كلّ في مدينته التي يسكن فيها، فشحذت ذاكرتي، فإذا أنا أمام حصيلة لا بأس بها من تلك الأساطير، منها ما هو متعلق بأسباب التسمية، والروايات المتداولة عن قصر الشناوي، وأنه كان سجناً اختاره سيدنا سليمان -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم- لسجن مردة الجن، إضافةً إلى النقود المعدنية التي كانت تُكال بالمكاييل كما تُكال الغلال كنايةً عن الازدهار الاقتصادي الذي كانت تنعم به المدينة. فعلتُ ذلك طمعاً في الدرجات، لكنني كنت أسخر في



دخيلة نفسي من انصراف الأستاذة إلى موضوعات اجتماعية بدلاً من التركيز فيما نحن بصدده من تعلّم الإنجليزية. وفي المحاضرة التالية نادت الأستاذة اسمي، وطلبت مني أن أقف، فنفّذت طلبها، لكن انتابني شعور بأن في الأمر نوعاً من العتاب لخطأ ما ارتكبته في أثناء تناولي الموضوع، وكانت المفاجأة التي أذهلتني قولها: مبروك، موضوعك ممتاز ومتطابق لما كنت أرمي إليه من تعرّف الاجتماعيات السودانية. تلك كانت لحظة بعثت الثقة في نفسي، وأحسست بأهمية المعلومات التي تجمّعت لديّ عن تلك المدينة طوال مدة ليست بالقصيرة، فترتّب على ذلك مستقبلاً كتابة مقال (سواكن.. المدينة البيضاء)، الذي نشرته لي مجلة (الفيصل) عام ٢٠٠٨م. وكانت المفاجأة الكبرى بالنسبة إليّ التعليق الذي كتبه أستاذنا الجليل الدكتور عبدالهادي التازي، ونشرته (الفيصل) في مايو عام ٢٠١٠م بعنوان: (ابن بطوطة في سواكن السودان)، فأضاف ذلك وقفةً جديدةً مع محبوبتي سواكن، ترتّب عليها كتابة المقال الذي بين أيدينا الآن بعد المصادفة الجميلة السالفة الذكر التي دفعتني دفعاً إلى كتابة هذا الرد، واستعادة كثير من ذكرياتي العطرة عنها؛ لأهمس بها في آذان أستاذنا الجليل، الذي أسرت نفسه، وأثارت الشجون فيها؛ ليعلن عن حبّه لها من أول وهلة، متمنياً أن يثني له الله الوساد فيها ليراها رأي العين، وليس راءٍ كمن سمع، وأقول له: هذا دأبها مع كلّ من يقترب منها، ولو عن طريق السمع من دون أن يمتّع ناظريه برؤيتها، كما كان الحال مع الرحالة دا كاسترو، الذي أسهب في الكتابة عنها من دون أن يزورها.

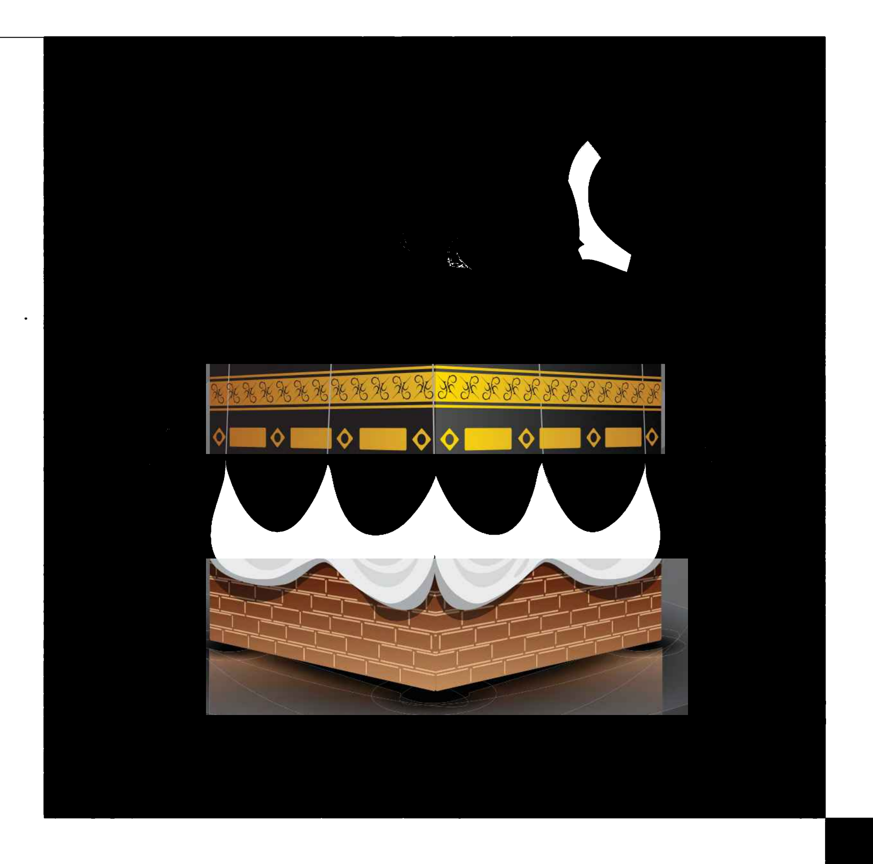
وعوداً على بدء، لا بد لنا من وقفة عند العاشق الولهان لرؤيتها أستاذنا التازي، ومشاعره التي عبر عنها بقوله: «تلك أحاديث ابن بطوطة عن (سواكن)، التي لا أزال أنتظر من زميلنا الأستاذ الحيدرابي أن يزيدنا حديثاً عن هذه الجزيرة التي أحلم بالوصول إليها في يوم من الأيام». بهذا لقد فاح عبير عشق قيس ليلاه، وهاأنذا أقول له: فإن كان سبق لي شرح معنى كلمة (أوسوك) باللغة البجاوية، التي تعني السوق، فاسمح لي بأن أخاطبك باللغة نفسها، فأقول لك: إيتنينا، التي تعني: مرحباً بمقدمك، بل أردّد مع الشاعر قوله:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا
نحن الضيوف وأنت ربّ المنزلِ

المراجع

(١) أحمد محمد غندور، سواكن: هل تصلح نجمة البحر خطيئة الشعب المرجانية؟، مجلة العربي الكويتية، عدد ٢٣٦، يوليو ١٩٧٨م، ص١٠٦-١١١.
(٢) شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي، رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المجلد الثاني، قدّمه وحقّقه ووضع خرائطه وفهارسه: عبدالهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص١٠٠.
(٣) إبراهيم أحمد شلية، همسة حجر من بقايا قصور سواكن، صحيفة الخرطوم، نافذة على الثغر، عدد ٢٩٦٧، ٢٨ مارس ٢٠٠٢م، ص٨.
(٤) محمد أحمد الحيدرابي، سواكن: إطلالة على التاريخ، صحيفة الخرطوم، عدد ٣١٣٤، ٩ أكتوبر ٢٠٠٢م، ص٩.
(٥) عبدالهادي التازي، اكتشاف غير مسبوق حول رحلة ابن بطوطة، مجلة الفيصل، عدد ٣٣٥، يوليو ٢٠٠٤م، ص٦٠-٧٥.
(٦) عبدالله جعفر السيد، سواكن نافذة أطلّت على البحر الأحمر، مجلة الفيصل، عدد ٣٤١، ديسمبر ٢٠٠٤- يناير ٢٠٠٥م، ص٦٤-٧٧.
(٧) أبو شامة المغربي، ورقة عن الدكتور عبدالهادي التازي: باحث في أدب الرحلة، على الرابط: htt://group.eqla3.com/0144444/.gif متاح في ٣٠ مارس ٢٠٠٧م.
(٨) محمد أحمد الحيدرابي، سواكن: المدينة البيضاء، مجلة الفيصل، عدد ٣٨٠، فبراير- مارس ٢٠٠٨م، ص٧٦-٩٣.
(٩) محمد أحمد الحيدرابي، سواكن: تبيان وعرض حال، صوت برؤوت، يونيو ٢٠٠٩م.
(١٠) عبدالهادي التازي، ابن بطوطة في سواكن السودان، مجلة الفيصل، عدد ٤٠٧- ٤٠٨، إبريل- مايو ٢٠١٠م، ص٤٨-٥٧.
(١١) محمد أحمد الحيدرابي، بورت سودان ضرّة سواكن السودان، مجلة الفيصل، عدد ٤٢٣- ٤٢٤، أغسطس- سبتمبر ٢٠١١م، ص٦-٢٥.
(١٢) موسوعة البابطين الشعرية.

هذا المقال ردّ على تحقيق عبدالهادي التازي (ابن بطوطة في سواكن السودان)، الذي نشرته (الفيصل) في العدد ٤٠٧-٤٠٨ الجماديان ١٤٣١هـ/ إبريل- مايو ٢٠١٠م تعليقاً على مقال الكاتب (سواكن.. المدينة البيضاء) الذي نشرته (الفيصل) في العدد ٣٨٠ صفر ١٤٢٩هـ/ فبراير- مارس ٢٠٠٨م.



قصيدة

عاشق الكعبة

نوري الوائلي

نيويورك – الولايات المتحدة الأمريكية

غيابك في الفؤاد له احتشاءُ ... وطيفك في الخيال له انتماءُ

عشقتك، هل إلى العشاق صبر؟ ... وهل يُجلى بلقياك الشقاءُ؟

عشقتك في القرار كعشق صبّ ... وعيني لم يكحّلها الضياءُ

فشوقي كالخسوف بليل دهري ... وليلي -من صبًا- ندراً يُضاءُ

يقلّبني من الأشواق ضرٌّ ... لرؤيا من لها يُرجى اللقاءُ

فصبري للقاءِ دبيبُ نملٍ ... وشوقي كالجياد لها الفناءُ

فلا بالصبر تنغلق الليالي ... ولا بالوصل يكتمل الرضاءُ

فقربك قد أذاق النفس حسناً ... له للروح دفء واحتماءُ

فخوفي بعدما مُلئت عيوني ... رحيلاً زاده بالهجر داءُ

أحاور من لها في الروح كون ... فيكرمني مع الردّ الحفاءُ

فيا ليت اللقاء يشدّ صبري ... ويمحو من همومي ما يشاءُ

لبعدك يرتوي في النفس جرح ... فيشفيه إذا شُفي الفناءُ

فجرحي نازف فيه صليل ... تسامى من مجاريه الدواءُ

وباتت -من قذى ألمي- عظامي ... كأغصان يجرّدها الشتاءُ

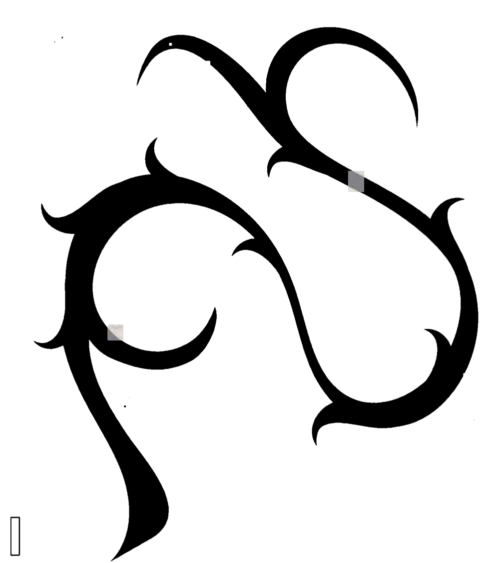
فوصلك والرحيل عمى عيوني   من الأشواق أدماها البكاء
كياني في الفراق ضئيل قشّ   علاه العصف ليلاً والهواء
عروقي من أساي تجفّ غماً   فترويها بلقياك الدماء
فيا ليل الأسى قد دُمت خلداً   فهل يجليك من عمري الضياء؟

***

لوصفك -إن وصفتَ- له انتهاء   ووصفك بالكمال هو ابتداء
سوادك في الرؤى نور وقدس   وروضك للسماء له السماء
ويكسوها السواد كأن بدراً   له في الليل وهج يُستضاء
جمال في المقام له مهاب   وأركان يزيّنها الغطاء
بها الدنيا غدت للكون قلباً   على نبضاته دام البقاء
بها الآفاق أكوان تجلّت   بها الأجواء مصباح يُضاء
بها النسمات أفواه تنادي   له التهليل دوماً والثناء
لها ربّ يتوّجها بنور   هو النور الإلهيّ المضاء
لها ضوء علا الأضواء وهجاً   بألوان فيتبعه الفضاء
رحلتُ مهاجراً أهلي ومالي   للقياها؛ فقد طفح الإناء
سعيتُ منادياً والقلب طير   يرفرف نحوها والعين ماء
تسابق من عظيم الشوق قلبي   مع الساقين يسعفها السخاء
فنادى القلب: يا قدماي سيرا   فأسلمها إلى الركض الوفاء
قَرُبتُ ومن فناها عند ليلٍ   كأن الأفق فجر وارتقاء
أعانقها كأضلاعي لقلبي   وأحضنها فيغمرني البهاء
عجبتُ لطلعة فاقت خيالاً   يؤجّجها بأضواءٍ سناء
جلستُ أمامها والعين ملأى   بآيات يزخرفها النقاء
سجدتُ أمامها لله رباً   فرؤيتها لهيبتها نماء
شعرتُ بالأمان كأن روحي   يدثّرها بإعصارٍ بناء
دخلتُ منادياً: الله أكبر   فسارع من مناداتي الولاءْ
ستّيرٌ ماجدٌ ربٌّ رحيمٌ   عظيمٌ غافرٌ أحدٌ رجاء
دخلتُ مؤمّلاً كرماً وفوزاً   ومرضاةً بها يعلو الرضاء
فذنبي ذلّني، والذنب ذلٌّ   فمنه ظاهرٌ، منه الخفاء
فكيف بحيلتي والنفس ملأى   بمعصيةٍ بها يكبو الدعاء؟!

***

دخلتُكِ طالباً ربي ملاذاً   فأخجلني من الطلب الحياء
دخلتُكِ حاملاً في النفس وزراً   علا الأكوان منه إستياء
قدمتُكِ حافياً ندمي عظيم   لوجهك قادني ربي ابتغاء
قدمتُكِ شاكياً لله أمري   فقد أضحى مع الذنب البلاء
دخلتُكِ حائراً: هل من شفيع؟   فيأتيني من الله النداء
أتسأل شافعاً وأنا قريب   أجيب لدعوةٍ فيها الرجاء؟!
تراني هل أعيش ويأتي يوم   فيجمعني مع البيت اللقاء؟!
سلام للمقام ومن بناه   سلام صادق فيه الوفاء





سيكولوجية الكوميديا والكوميديين

يقبل الجمهور على العروض الكوميدية بشكل ملحوظ؛ لأنهم يجدون فيها درجةً من التنفيس النفسي، والشعور بالبهجة والسعادة والانبساط. واهتم كتاب المسرح بالأعمال الكوميدية اهتماماً كبيراً، ولم يهتم أحد بسيكولوجية الكوميديا (الكوميديان)، ولا سيكولوجية الكوميديا نفسها، وتحليلها من المنظور النفسي؛ لذلك نلقي الضوء هنا على الجوانب السيكولوجية للكوميديا والكوميديين.

وائل يوسف
الجيزة – مصر

هناك قصة تُروى عن رجل فرنسي ذهب إلى أحد الأطباء النفسيين، وهو في حالة من الكرب الشديد، وقال له: دكتور، إنني أعاني حالةً مفزعةً من التعاسة والاكتئاب، هل يمكنك أن تصف لي بعض الأقراص، أو أيّ شيء يمكنه أن يساعدني على التغلب على هذه الحالة؟. فأجاب الطبيب النفسي قائلاً: أنت لا تحتاج إلى أقراص، اذهب وشاهد جروك (المهرج الشهير)؛ إنه سيبهجك ويجعلك تشعر بالتحسن. فأجاب الرجل التعس: يا دكتور، أنا جروك.

مع أن ممثّلي الكوميديا يجعلون الآخرين يضحكون إلا أنهم أنفسهم غالباً ما يكونون غير سعداء، إنهم غالباً ما يشعرون بالوحدة والانعزال والعجز عن رؤية الجانب الطريف (المضحك) من حالتهم الخاصة.

ليس هناك من شكّ في أننا نشعر بأننا أفضل عندما نضحك كثيراً، وهذا هو السبب الذي يجعل معظم الناس يبحثون عن الفكاهة، ويقرؤون القصص الهزلية والصور الكاريكاتيرية، ويذهبون إلى المسرح، ويشاهدون التمثيليات الكوميدية في التلفاز. وقد تمّ الكشف تجريبياً عن أن التعرّض للمادة الفكاهية له القدرة على التخفيف من الحالات الانفعالية غير السارة؛ كالغضب، والقلق، والانزعاج[1].

تشارلي شابلن



جذور الفكاهة

قام علماء النفس عبر العقود القليلة الماضية بكثير من البحوث حول المسوّغات التي تجعل الناس يبتسمون ويضحكون[٢]. وعلى الرغم من وجود كثير من المناطق الغامضة في هذه الظواهر إلا أن بعض الإجابات بدأت بالظهور فعلاً، وتكشف المقارنات مع الأنواع الحية الأخرى، خصوصاً القرود، أن الابتسام والضحك ليسا درجتين مختلفتين من الشيء نفسه، لكنهما ظاهرتان مشتقتان من مسارات تطورية مختلفة ومتعارضة تقريباً؛ فالابتسام يبدو أنه قد ارتقى من ظاهرة المطّ العصبي الخضوعي (الخانع) للشفتين فوق الأسنان، وهو تعبير من تعبيرات الوجه يدلّ لدى قرد الشمبانزي على محاولة استرضاء قرد آخر مسيطر اجتماعياً، فهنا تطبق الأسنان بعضها على بعض، ثم لا تكون جاهزةً للعضّ.

ولدى بني الإنسان أيضاً يعدّ الابتسام طريقةً كبرى تُوصل من خلالها مشاعر الإذعان والافتقار إلى القدرة على إلحاق الأذى، وهي طريقة قد تلجأ إليها بشكل معيّن لتفسير السبب الذي من أجله تكون النساء أكثر ابتساماً من الرجال؛ فتحليل الصورة الفوتوغرافية في الصحافة اليومية يظهر أن الرجال الذين يكون معظمهم من السياسيين، ومن صفوة رجال الأعمال، غالباً ما يكونون من أصحاب الوجوه الجادة أو الصارمة، بينما تصوّر النساء في أغلب الأحوال وهنّ مبتسمات حتى عندما يصوّرن وهن يحضرن جلسات محاكمة تدور حول أزواجهن الذين قتلوا، أو وهن يزُرْن هؤلاء الأزواج في المستشفى[٣].

استطاع علماء النفس أن يستنتجوا اثنتين من الوظائف الرئيسة للضحك؛ أولاهما أن تعبّر عن العدوان، والثانية أن تؤكد التضامن الجماعي. ولأن الذكور أكثر عدوانيةً بشكل نمطيّ من الإناث، وأكثر ميلاً إلى تكوّن زمرات (عصابات) من الجنس أو النوع نفسه، فإنه يتوقع أن يكون الرجال أكثر ميلاً إلى الضحك مقارنةً بالنساء. وقد أظهرت البحوث أن الرجال هم من يستهلّون أو يبدؤون الضحك أكثر مقارنةً بالنساء، مع أن النساء يملن إلى اللحاق كذلك بهذا الضحك بوصفه شكلاً من أشكال المسايرة الاجتماعية. كما أن

الفكاهة أحد أنماط التخاطب المركزية لدى الذكور، وبشكل أكثر جوهريةً من الإناث[٤]. وتكشف دراسات الضحك لدى الأطفال[٥] عن مكوّن مهم آخر يتعلق بالخوف أو التوتر؛ فالأطفال يضحكون عندما يُستثار لديهم نوع من القلق يعقبه إدراك بعدم وجود أيّ خطر هناك، أو عندما يكون هناك مزيج من القلق والأمان.

مكونات الفكاهة

يمكننا أن نقول: إنما تنشأ الفكاهة من مزيج من الدفء والأمن من ناحية، والعداوة أو الخوف من ناحية أخرى؛ فالفكاهة تمزج بين الميل إلى الاسترضاء (الابتسام) والسيطرة (الضحك). وقد كشفت الدراسات الارتقائية أن الأطفال يضحكون عندما تظهر الهاديات أو العلامات الدالة على القلق على نحو شديد القرب من الهاديات الدالة على الأمن، وهكذا فإن الفكاهة تتطلب كلاً من استثارة التوترات وخفضها أو التحرّر منها[٦].

تحليل النكتة

أشار فرويد (١٩٠٥م) إلى أن معظم النكات يمكن تحليلها إلى مكوّنين أساسيين، هما: المادة الليبيدية Libidinous Material[٧]، وهي في العادة جنسية وعدوانية، وتعمل على زيادة قوة رد الفعل، ثم هناك أيضاً البنية الشكلية Formal Structure أو التكنيك، الذي يقدّم العُذر أو التسامح أو التغاضي الاجتماعي على إثارة مثل هذه المشاعر المحرمة.

وقد اعتقد فرويد أن الفكاهة مفيدة بوصفها صمام الأمان إزاء الجنس المكبوت والعدوان؛ فالنكتة تسمح لنا أن نشارك الآخرين في الميول غير المقبولة بطريقة متلوية وعلى نحو طفيف، فلا نضع كل أوراقنا على المنضدة على نحو مكشوف. ومن المحتمل دائماً أن يُلام الجمهور على تلميحاتهم وغمزاتهم الخاصة كما يفعل ذلك بعض ممثّلي الكوميديا الذين يقدمون فقراتهم في قاعة الموسيقا، كما أننا نستطيع أن نعبّر عن عدائنا تجاه الأشخاص الآخرين أو الجماعات الأخرى على شكل نكتة، ثم نتّهمهم بعد ذلك

الفكاهة حرب عصابات

يشبه ممثّلو الكوميديا الحديثون مضحكي البلاط في العصور الوسطى؛ فهم غالباً يمثّلون أو يعبّرون عن رغبتنا في أن نكون غريبي الأطوار ومتمردين، وأن نصرع الأبقار المقدسة. إن هؤلاء الممثلين الكوميديين أشخاص غير مسؤولين تجاه سلطات أعلى، وغير منضوين تحت لواء قانون معين، وهم يرفضون أن يكونوا مرعوبين أو شاعرين بالرهبة من السلطات أو من النظام. وهذا الأمر الذي يتعذّر تجنّبه هو ما يحدث بين الفينة والأخرى من هجوم للنظام على ممثّلي الكوميديا، وفرض الرقابة أو العقاب عليهم. ووفقاً لما قاله ماكدونالد Mac Donald (١٩٦٩م)، فإن الفكاهة تشبه حرب العصابات؛ إذ يعتمد النجاح، وربما البقاء، على قيد الحياة، وهو ما يشبه ضوء السفر، أو الضوء المرتحل، ذلك الذي يظهر بشكل غير متوقع، ويختفي بسرعة الضوء.

تقدم الفكاهة لنا صمام أمان للتعبير عن الأفكار المحرمة، خصوصاً تلك المرتبطة بالجنس والعدوان

الفكاهة قد تزداد قوةً من خلال تلك الحاجات الانفعالية كالجنس والعدوانية والخوف من الموت

بأنهم يفتقرون إلى الإحساس بالفكاهة عندما يتخذون موقفاً هجومياً منا.

وظائف الفكاهة

- التخفّف من وطأة المحرّمات الاجتماعية:

تقدّم الفكاهة لنا صمام أمان للتعبير عن الأفكار المحرمة، خصوصاً تلك المرتبطة بالجنس والعدوان؛ فهناك حاجات وميول طبيعية ينبغي تنظيمها على نحو اجتماعي، لكن القمع والإخماد الكامل لها أمر غير طبيعي. وبالطريقة نفسها التي تقدّم لنا من خلالها عملية مشاهدة مباراة ملاكمة أو المشاركة فيها نوعاً من التنفيس المقبول اجتماعياً عن اندفاعاتنا العدوانية غير المقبولة اجتماعياً، فكذلك تعدّ الفكاهة ميداناً أو ساحةً للتنفيس المنضبط أو المتحكم فيه عن اندفاعاتنا.

- النقد الاجتماعي:

الهجاء الساخر شكل من أشكال الفكاهة، ومن خلاله تتم السخرية أو التقليل من شأن المؤسسات الاجتماعية والسياسية، وكذلك من الأفراد المشاهير المرتبطين بهذه المؤسسات. وقد يكون هذا ببساطة وسيلة لتخفيف التوتر أو التنفيس عنه، ومن هنا يكون هذا الهجاء الساخر وسيلةً مؤيدةً أو مساندةً للوضع الراهن، أو قد يؤدي إلى حدوث تغيّر ما في النظام[٨].

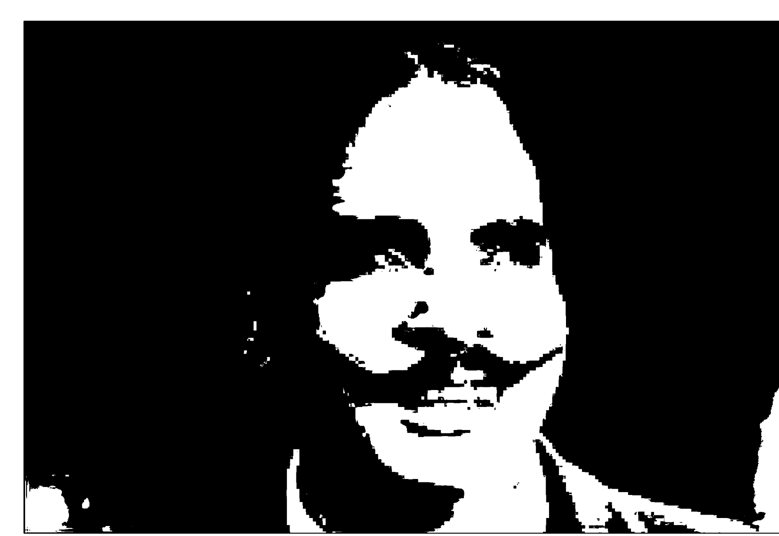
- ترسيخ عضوية الجماعة:

يرتبط الابتسام والضحك لدى الأطفال الصغار بالرضا والاستمتاع، وهما يميلان إلى الظهور مصاحبين للعب، وهما يحدثان في معظم الأحوال في سياق الاجتماعية. وهكذا تصبح الفكاهة عنصراً أساسياً مهماً في التماسك الاجتماعي؛ أي لغة خاصة للجماعة الداخلية. فعندما يضحك الجمهور على نكات برناردماننج Bernard Manning أو على The Dice Man فإنهم يؤكدون وجود قيم مشتركة، ووجود اتجاهات تجمع بينهم. ويمكن للفكاهة كذلك أن تكون طريقةً لإعادة الجماعة إلى الانطواء تحت لواء معايير هذه الجماعة؛ فمثلاً: قد تضحك (تسخر) جماعة من الهيبيز على أحد أعضائها عندما تجده قد تحوّل إلى حلاقة شعره بشكل نظيف، وفي هذه الحالة يكون الضحك الموجّه نحو هذا الفرد شكلاً من أشكال العقاب الاجتماعي، وعند الأشكال المتطرفة من هذا السلوك قد يُرفض أحد الأعضاء في جماعة معينة بشكل تام؛ فلا يتم التواصل معه مطلقاً، من خلال السخرية والتهكم، وهي عملية تشاهدها في شكلها القاسي بين الأطفال في فناء المدرسة مكان اللعب.

- الدفاع ضد الخوف والقلق:

من خلال الضحك على الأشياء التي تخيفنا نخضع هذه الأشياء لسيطرتنا، ونجعلها أقلّ تهديداً لنا. والشيء النموذجي هنا هو تعليق وودي آلان الذي قال فيه: «بالنسبة إليّ ليست المشكلة هي أنني أخشى الموت، لكنني لا أريد أن أكون هناك عندما يجيء»[٩]. وتعمل الفكاهة المرتبطة بعمليات الإعدام شنقاً، والفكاهة القاتمة، والنكات التي تدور حول الكوارث؛ كتلك النكات التي تواترت مباشرةً عقب مشاهدة انفجار مكوك الفضاء في رسالة متلفزة، بوصفها نوعاً من الآلية (الميكانيزم) الدفاعية. وقد تكون عملية الاستخفاف بالنفس، أو الحطّ من قدر الذات، وهو شكل من أشكال الفكاهة تخصّص فيه بعض الممثّلين الكوميديين أمثال وودي آلان، عمليةً توافقيةً، سواء بالنسبة للذي يروي النكتة أم الجمهور الذي يستقبلها.

عبد الفتاح القصري



فوائد الفكاهة على المتلقي

يعتمد تذوّق الفكاهة على القدرة على رؤية العلاقات، وفهم الأنماط أو الطرز الكلية، وتكون هذه الجوانب الكلية من اللغة ممكنةً من خلال ذلك التمايز الخاصّ بين نصفي المخ، وكذلك من خلال ذلك التفاعل المركّب بينهما. إن الفكاهة قد تزداد قوةً من خلال تلك الحاجات الانفعالية كالجنس والعدوانية والخوف من الموت، لكنها أيضاً -وبدرجة كبيرة- قدرة عقلية

منطقة الجهاز الطرفي في المخ (أي: مركز المخ الانفعالي) يتحرّر مؤقتاً من ذلك التحكّم الخاصّ بقشرة المخ، خصوصاً ذلك التحكم المرتبط بالمناطق الجبهية المتقدمة من هذه القشرة، ثم يعمل على تحرير التوتر والتنفيس عنه بطريقة اجتماعية مقبولة[١٠].

الكوميديون والاضطرابات النفسية

بطبيعة الحال، يمكننا ذكر عدد من ممثّلي الكوميديا



إنسانية ترتبط بنشاط المخ البشري. والمنعكسات المتضمنة في ذلك العرض، أو الإظهار الخارجي للضحك، ليست مفهومةً على نحو كامل؛ إذ تشتمل هذه المنعكسات على تقلّصات في عضلات الوجه، وعلى عضلات الحجاب الحاجز والبطن؛ إذ يهتز الجسم كله، وتتّسع الأوعية الدموية، ويحدث صوت يشبه السعال المتقطع، كما قد يكون هناك فقدان للتحكم في الإفرازات الجسدية؛ كالدموع والبول مثلاً.

وقد وصف جرومت Grumet (١٩٨٩م) هذه الاستجابة العامة بأنها نوع من التطهير شبه الصرعي Epileptoid Catharsis، زاعماً أن الدافع الغريزي الذي ينطلق بقوة من

الذين يبدو عليهم أنهم سعداء ومتّزنون انفعالياً؛ فالدليل الموجود على وجود اكتئاب لدى ممثّلي الكوميديا بشكل يفوق المعدل الطبيعي للبشر هو دليل غير كافٍ. وقد وجد روتن Rotton (١٩٩٢م[١١]) أن المرفّهين Entertainers كمجموعة يموتون في عمر مبكر مقارنةً بمجموعات من حرف أخرى قابلة لإجراء مقارنات معها. لكن هذه النتيجة لم تكن قاصرةً على ممثلي الكوميديا فقط، كما لم يكن ممكناً التأكد مما إذا كان الضغط النفسي أو الانتحار له صلة بهذا الموت المبكر للمرفهين. ولعل أفضل دليل على وجود الاضطراب النفسي لدى ممثّلي الفكاهة Humorists هو ما ذُكر في التقرير العلمي الذي

مع أن ممثّلي الكوميديا يجعلون الآخرين يضحكون إلا أنهم أنفسهم غالباً ما يكونون غير سعداء، إنهم غالباً ما يشعرون بالوحدة والانعزال



كتبه يانوس Yanus (١٩٧٥م)، وجاء فيه أن ٨٥٪ من عيّنته، التي تكوّنت أساساً من ممثّلي الكوميديا الذكور، لجؤوا إلى العلاج النفسي في وقت ما من حياتهم، ومع أنه لم يذكر لنا أيّ أرقام موازية خاصّة بعيّنات ضابطة من مهن أخرى فإن هذه النسبة عالية من دون شكّ.

إذا كان علينا أن نقبل مؤقتاً للحظة ما يُقال من أن كثيراً من ممثلي الكوميديا، وليس كلهم يقيناً، معرّضون للاكتئاب، فهل هناك أيّ مشقات أو ضغوط نفسية خاصة داخل هذه المهنة يمكنها أن تكون مسؤولةً عن هذا التعرض للاكتئاب؟. يمكننا أن نخمّن أن تلك المحاولات الخاصة منهم للحفاظ على المادة التي يقدمونها، واستمرارها متصفة بالطزاجة والتأثير، وكذلك محاولة أن يتّسموا بالطرافة والمرح طوال أوقات النهار والليل استجابةً لتوقع الجمهور العام منهم، من الممكن أن تؤدي إلى ظهور أسلوب حياة ضاغط. وربما كان الأكثر أهميةً هنا هو أن نشير إلى أن ممثّلي الكوميديا غالباً يستثمرون على نحو واضح جوانب الغرابة، وكذلك العيوب المميزة الخاصة بهم؛ كالبدانة في حالة أوليفر هاردي Oliver Hardy، وعدم الجاذبية في حالة وودي آلان Woody Allen، والبخل في حالة جاك بيني Jack Penny، وغموض النوع الجنسي - أهو ذكر أم أنثى؟- في حالة فرانكي هاورد Frankie Howard.

فإذا كان على ممثّلي الكوميديا هؤلاء أن يستدخلوا (يضعوا بداخلهم) هذه السمات التي يستخدمونها في سخريتهم، ويُمعنوا النظر فيها، فإن اعتدادهم بذاتهم قد يكون معرّضاً للخطر.

هناك صلة أخرى محتملة بين الاكتئاب والكوميديا، تتمثّل في أن هؤلاء الناس الذين يكونون غير سعداء؛ لأنهم يبدؤون عملهم من دون انجذاب قويّ نحو الدور الخاصّ بالمهرج مثلاً، يتحولون إلى أشخاص فكهين أو ظرفاء كآلية مناسبة لمواجهة اكتئابهم الخاصّ، كما أنهم يستخدمون هذه الآلية لجعل الآخرين يضحكون كتطوير ثانوي لهذه الآلية. كان هذا الفرض الذي فحصه فيشر وفيشر (١٩٨١م)[١٢]، فقاما بدراسة خاصة على ممثّلي الكوميديا في محاولة لاكتشاف ما الذي يدفعهم نحو التهريج أو المزاح الذي يدور حول أنفسهم،



وكانت النتيجة التي توصّلا إليها هي أن ممثّلي الكوميديا كانوا معنيين بإنكار التهديد لمصلحتهم أو لحسابهم الخاص أساساً؛ إذ يتم العزل الخاصّ للخيوط ليحظى الآخرون أيضاً بالمساعدة على مواجهة كوارث حياتهم.

يمكنني المجادلة بأن كلّ إنسان يريد أن يكون محبوباً، وأن رجال الأعمال يكوّنون الثروات من أجل الدافع نفسه، لكن في مقابل هذه الحقيقة هناك الحقيقة الخاصة التي تشير إلى عدد من ممثلي الكوميديا يبدو أنهم يعيشون حالة خاصة من العزلة والتعاسة، ويعانون صعوبةً واضحةً في تكوين علاقات مشبعة؛ مثل توني هانكوك الذي توفّي وحيداً في غرفة نومه بأحد الفنادق، وكذلك كان الممثلان الكوميديان البريطانيان بيني هيل وفرانكي هاورد، اللذان فصل بين موتهما يوم واحد أو نحو ذلك خلال عام ١٩٩٢م، وكان كلّ منهما يعيش بمفرده، وقد مرّت عدة أيام قبل أن تُكتشف جثة هيل. وبينما كان كينث وليامز Kenneth Williams (١٩٨٥م) يقول: إنه

يشبه ممثّلو الكوميديا الحديثون مضحكي البلاط في العصور الوسطى؛ فهم غالباً يمثّلون أو يعبرون عن رغبتنا في أن نكون غريبي الأطوار ومتمردين

الفكاهة اختلاف الذكور والإناث

بشكل عام، يمكننا القول: إن الذكور أكثر استجابةً للفكاهة الجنسية والعدوانية، بينما النساء أكثر تذوّقاً للأشكال غير الحسية والأشكال الدفاعية من الفكاهة، ولن يكون مثيراً للدهشة أن نعرف أن النساء يكن أقلّ تفضيلاً للنكات المميزة بين الجنسين، التي تُصوَّر فيها النساء بشكل ينتقص من أقدارهن، أو أن نعرف أن الرجال لا يهتمون كثيراً بالنكات التي تشير إلى نزعتهم المتعصبة لجنسهم، والتي تعرض أيضاً لحالات الشعور بعدم الأمان الذاتي لديهم.

مثلي في ميوله الجنسية بحكم الطبيعة؛ فقد زعم أنه تجنّب كل العلاقات مع الآخرين، سواء أكانت هذه العلاقات جادة أم عابرة، والشخص الوحيد الذي أحبه طوال حياته هي أمه[١٣]. لقد كان وليامز على كل حال نرجسياً على نحو مثير للاهتمام. وقد لاحظ جورج ميللي George Melly في مراجعته الخاصة في صحيفة (الصانداي تايمز) للسيرة الذاتية لوليامز، التي كان عنوانها (بالضبط وليامز Just Williams) أن وليامز قد عاش نحو ستين عاماً تقريباً من التاريخ المضطرب، والتغيّر الاجتماعي العميق، ولم يسجل في مذكراته أيّ أفكار خاصة تتعلق بأيّ شيء لا يرتبط به هو شخصياً.

وفي نهاية هذا العرض أردتُ أن أكشف الستار عن سيكولوجية العملية الكوميدية؛ حتى يعرف القارئ الآلية السيكولوجية للكوميديا، ويعرف فوائد الكوميديا، ويقبل عليها. وأخيراً، قدّمتُ عرضاً لسيكولوجية الكوميديان الشخص الذي يحمل بداخله الكثير والكثير، ويسعدنا وربما يكون هو غير سعيد.

من خلال الضحك على الأشياء التي تخيفنا نخضع هذه الأشياء لسيطرتنا، ونجعلها أقلّ تهديداً لنا



المراجع

(1) Hudak. D.A.. Dale. J.A.. Hudak. M.A. and De Good. D.E. (1991) Effects of humorous stimuli and sense of humor on discomfort. Psychological Reports. 69. 779-786.

(2) Durant. J. and Miller. J. (1988) Laughing Matters: A serious look at bumour. Harlow: Longman.

(3) جلين ويلسون (٢٠٠٠م). سيكولوجية فنون الأداء، ترجمة: شاكر عبد الحميد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، رقم٢٥٨، ص٧.

(4) Cox. J.A.. Read. R.L. and Van Auken. P.M. (1990) Male – Female differences in communicating job-related humour: an explotatory study. Humour: International Journal of Humour Research. 3. 287-295.

(5) McGhee. P.E. (1979) Humour Its Origin and Development. San Francisco:Freeman.

(6) جلين ويلسون، سيكولوجية فنون الأداء، مرجع سابق، ص٧.

(7) Janus. S.S.. Janus. C. and Vincent. J. (1986) The psychosexuality of stand-up comedian. Journal of Psychohistory. 14. 133-140.

(8) Paletz. D.L. (1990) Political humour and authority: from support to subversion. International Political Science Review. 11. 483-493.

(9) Dorinson. J. (1986) The Jew as comic Lenny Bruce. Mel Books. Woody Allen. In A. Ziv (ed) Jewish Humour. Tel Aviv: Papyrus Publishing House.

(10) جلين ويلسون، سيكولوجية فنون الأداء، مرجع سابق، ص٧.

(11) Rotton. J. (1992) Trait humour and longevity: do comics have the last laugh? Healtb Psychology. 11. 262-266.

(12) Fisher S. and Fisher R.L. (1981) Pretend the World is Funny and Forever: a psychological analysis of clowns and actors. Hillsdale. NJ: Erlbaum.

(13) Williams. K. (1985) Just Williams. London: Dent.

جنان حنايا

محمد جبر الحربي

الرياض – السعودية

قد يجدُ الليل ملاءَتَهُ

والصبحُ عباءَتَهُ

والطيرُ كفايَتَهُ في كفن الصحراءِ

ولا تجدُ النسوةُ

غيرَ الشمسِ

وغيرَ الهمسِ

وغيرَ البابِ المغلقِ.

ماذا لو يصرخْنَ على البوابِ؟!

وماذا لو يطلبنَ هواءً عوضَ الذهبِ البارِدِ،

والشمسِ اللاهثةِ؟!

ومـاذا لـو يغمرهـنَّ الفيـضُ جنـانَ حنايا؟!

ماذا لو يتدلّى شجرٌ،

أو يتجلّى مطرٌ؟!

ماذا لو يتظلّلن بما في أيديهنّ من الحناءْ؟!

....

....

قد يجدُ الرجلُ الضوءَ

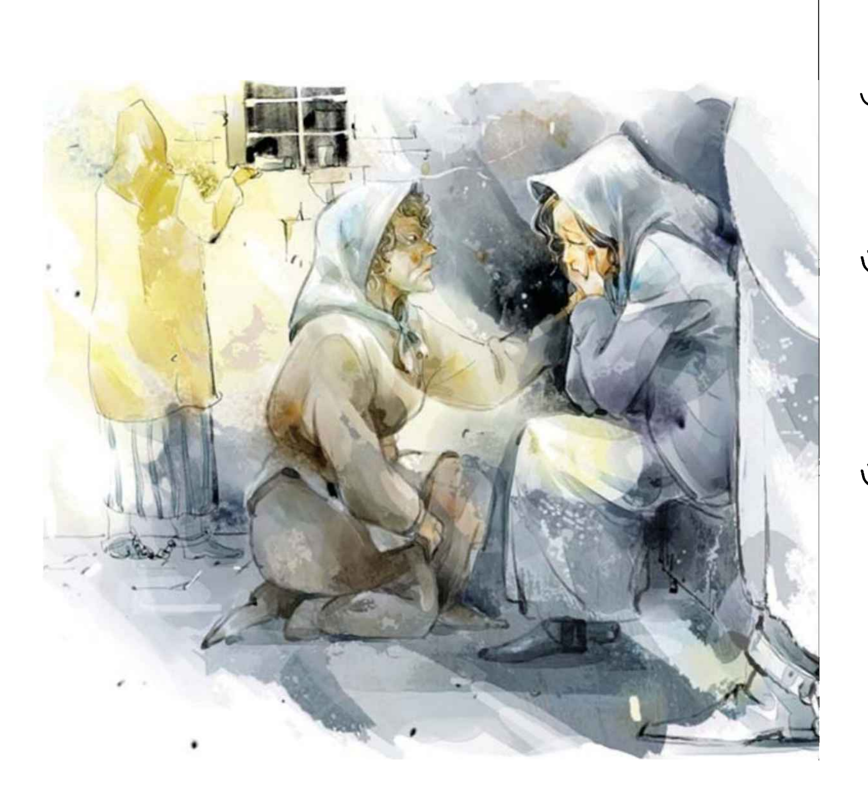
وقد تجدُ الصحراءُ الجنةَ دانيةً..

قد تجدُ النسوةُ معنًى للنسوةِ،

والساعاتِ المهملةِ،

ومبنًى..

في الأفعالِ.. وفي الأسماءْ!!



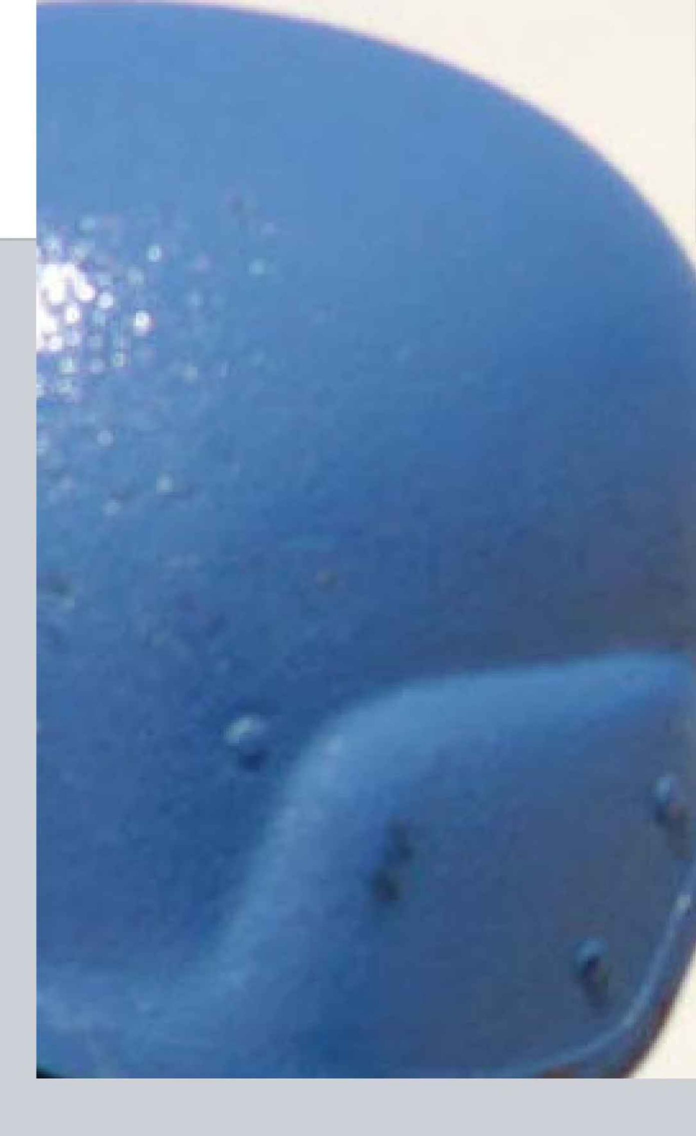


القضية الفلسطينية.. اختبار الإنسانية
راشيل كوري.. النموذج الأبرز

تعد القضية الفلسطينية اختباراً حقيقياً لإنسانية العالم بطول مدتها الزمنية، ومعاناة أهل فلسطين المقيمة والملازمة لهم، وبطش إسرائيل التي تتفنن في ألوان العذاب، وتبدع في ممارسة أشكال مبتكرة من البطش والغطرسة.

وقد نجح كثيرون في هذا الاختبار بوقفتهم المساندة والداعمة للحق الفلسطيني إلى حد التضحية بأرواحهم في سبيل الحق الذي آمنوا به، وتمثل راشيل كوري نموذجاً بارزاً في الدفاع عن المبدأ حتى دفعت حياتها ثمناً له.


آفاق



راشيل كوري..

الإنسانية في مواجهة الوحشية

العددان ٤٤١ - ٤٤٢ / الربيعان ١٤٣٤هـ



وقفت صامدةً وحيدةً أمام آلة القوة وهي تغتصب حقوق الضعفاء، ولم تتسلّح إلا بعقيدتها الصافية في الدفاع عنهم والتضامن معهم. أرادت أن تنقل الواقع الحقيقي إلى العالم بأسره فراحت ضحية هذا الواقع. أفردت (الجارديان) البريطانية إحدى افتتاحياتها لقضية مقتلها، ووصفتها بأنها ذاكرة تأبى الموت، وتضعها (الفيصل) اليوم على صدر غلافها؛ لتؤكّد أنها قصة شغلت الغرب ولم ينسها العرب. إنها راشيل كوري الأمريكية التي دهستها جرافة إسرائيلية وهي تدافع عن منازل الفلسطينيين، فرفعها ضمير الإنسانية إلى فضاء الشموخ وذاكرة التاريخ.

سيد الجعفري
هيئة التحرير



راشيل كوري فتاة أمريكية يهودية عضو في حركة التضامن العالمية، وهي منظمة احتجاجية غير عنيفة أسّسها شباب أمريكيون وبريطانيون وكنديون عام ٢٠٠١م بهدف دعم القضية الفلسطينية في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. سافرت كوري إلى قطاع غزة في فلسطين إبّان الانتفاضة الفلسطينية الثانية، أو انتفاضة الأقصى، التي اندلعت في ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠م، وشهدت تصاعد وتيرة الأعمال العسكرية والمواجهات المسلحة بين المقاومة الفلسطينية والجيش الإسرائيلي، وانتهت في عام ٢٠٠٥م مخلفةً ٤٤١٢ شهيداً فلسطينياً و٤٨٣٢٢ جريحاً. وكانت كوري من بين ضحايا هذه الانتفاضة؛ إذ قُتلت بطريقة وحشية يوم ١٦ مارس ٢٠٠٣م تحت عجلات إحدى الجرّافات العسكرية التابعة لقوات الاحتلال الإسرائيلي وهي تحاول إيقافها ومنعها من هدم مبانٍ مدنية لفلسطينيين في مدينة رفح بقطاع غزة؛ لتتصدر صورتها وهي تتحدى صلف هذه الجرافة وسائل الإعلام المختلفة تنديداً بالآلة العسكرية الإسرائيلية التي لا تفرّق بين الجنس أو الدم أو اللون.

طفولة حالمة

وُلدت راشيل كوري في ١٠ إبريل عام ١٩٧٩م في قرية أوليمبيا بواشنطن عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية لأسرة تتكون من أم وأب وأخ، وعاشت تحلُم بأن تكون شاعرةً، فكتبت عن الحب والسلام، وخطبت في زملائها في المدرسة وهي في الصف الخامس الابتدائي عن أمنيتها في الحياة قائلةً: «أنا هنا من أجل الأطفال الآخرين، أنا هنا لأن الأطفال في كلّ أنحاء العالم يعانون، ولأن هناك ٤٥ ألف شخص يموتون يومياً من الجوع، أغلبهم أطفال. علينا أن نفهم أن الفقراء حولنا في كلّ مكان ونحن نتجاهلهم، علينا أن نفهم أن الناس في دول العالم الثالث يفكرون ويهتمون ويبتسمون ويبكون مثلنا تماماً. حلمي هو القضاء على الجوع في عام ٢٠٠٠م، حلمي هو أن نعطي الفقراء فرصةً، حلمي هو أن أنقذ الـ٤٥ ألف شخص الذين يموتون يومياً. يمكن لحلمي أن يصبح حقيقةً، وسيصبح كذلك إذا نظرنا إلى المستقبل، ورأينا الضوء الذي يشرق من بعيد».

كانت راشيل تهتم بالعالم المحيط بها، وكان لديها خيال واسع

ومقدرة على الكتابة الأدبية؛ فمما كتبته عندما كان عمرها ١٢ عاماً: «أعتقد أني كبرت قليلاً، على كلّ حال فإن الأشياء نسبية، وتسعة أعوام قد تكون بطول أربعين، وذلك يتوقف على المدة التي يعيشها المرء». آمنت راشيل بالأخوة الإنسانية والعدالة المفقودة في العالم منذ صغرها، وظلّت على عهدها تحلم بمستقبل واعد حتى شبّت عن طوقها، ودخلت معترك الشباب فانضمّت إلى حركة التضامن العالمية في بلدها، ثم سافرت وهي ابنة ثلاثة وعشرين عاماً إلى غزة بعد أن أخذت إجازةً من جامعتها إيفر جرين؛ لتتظاهر ضد هدم بيوت الفلسطينيين الرافضين للإخلاء فوق رؤوسهم.

عاشت كوري الفتاة الشقراء الجميلة اليافعة في أزقّة غزة وحاراتها، والتصقت بترابها، فأقامت مع أسرة طبيب فلسطيني في بيت بسيط يتكوّن من غرفتين تهدّم من جرّاء القصف الإسرائيلي، وكانت تشارك الأسرة كلها النوم في غرفة واحدة تفترش فيها الأرض بجوار إحدى بنات العائلة. وتأثّرت بما يعانيه الفلسطينيون كلّ يوم، فكتبت إلى والدتها سيندي كوري في الولايات المتحدة الأمريكية تبثّها أنينها وأنين شعب برمته: «هذا يجب أن ينتهي، يجب علينا أن نترك كل شيء آخر ونفرّغ أنفسنا للتوصل إلى إنهاء هذا الوضع، لا أظنّ أن هناك ما هو أشدّ إلحاحاً».

كانت راشيل -كما تكشف مذكّراتها التي بلغت ١٨٤ صفحةً، ونشرت بعضها صحيفة (الأوبزيرفر) البريطانية، وضمّت كتابات بخطّ يدها ونسخاً مطبوعةً من رسائل إلكترونية وخطابات ورسومات خاصة بها تجسّد مأساة الفلسطينيين- أقرب إلى التمرّد الحساس والمندفع، وهو ما ظهر جلياً في رسائلها إلى أمها؛ ففي رسالتها الأخيرة إليها تقول: «أحياناً كنت أجلس لتناول وجبة العشاء مع المواطنين الفلسطينيين وأنا أدرك تماماً أن الآلة العسكرية الإسرائيلية الضخمة تحاصرنا، وتحاول قتل هؤلاء الذين أجلس معهم»، وتقول في رسالة أخرى: «علينا أن نقتدي بهؤلاء الذين يظهرون أن الإنسان يمكنه أن يتمتع بالطيبة والشجاعة والجمال والكرم والقوة على الرغم من المرور بظروف حياتية قاسية وصعبة»، وهي صفات بحثت عنها راشيل فيمن حولها من العالم بعد أن امتلأ بها قلبها الغضّ الذي نزف دماءه بفعل نقيض هذه الصفات مجتمعةً.

عاشت راشيل في غزة عاماً ونصف العام ضمن وفد دولي من دعاة السلام تصدّى على مدى أربعة أشهر لأعمال التجريف والدمار الإسرائيلية في مدينة رفح، وسكن الوفد الذي ضمّ عشرات المتضامنين من جنسيات مختلفة في خيام عند الشريط الحدودي جنوب مدينة رفح.

خالطت راشيل أهل غزة، فعرفت أفراحهم وأتراحهم، ولم يكن كبير أو صغير في المدينة إلا ويعرفها، كانت تدخل بيوتهم في الأزقة والمخيمات، وتعايشهم الهموم والمصاعب، وكانت تولي اهتماماً خاصاً بالأطفال؛ حتى عُرفت بأنها (صديقة الأطفال)؛ فلم تكن تترك مناسبةً إلا وتحضرها، بل كانت تبادر أحياناً إلى تنظيم مظاهرات احتجاجية ضد الاحتلال يشارك فيها الأطفال فقط. تعلّق بها الجميع، خصوصاً بعد أن أصبحت تجيد الحديث بالعربية، وارتدت الحجاب في بعض المناسبات لتؤكّد أنها تعايش الفلسطينيين في كل شيء ولا تختلف عنهم.

صورة تتحدى الموت

أرادت راشيل كوري نقل الواقع الحقيقي الذي يعيشه الفلسطينيون بكلّ آلامه ومعاناته إلى أسماع العالم وأنظاره، فكانت هي ضحية هذا الواقع عندما شاهد العالم أجمع صورتها وهي تتحدى الموت المقبل نحوها عبر جرافة عسكرية إسرائيلية من نوع كاتربللر تقدمت لهدم

المحامي حسين أبو حسين، الذي رافق عائلة كوري في مسارها القضائي طوال ٧ سنوات: الشهيدة راشيل هي من انتصر في النهاية، حتى لو أساء القضاء الإسرائيلي فإن ملايين البشر تعلّمت من إنسانيتها

منزل العائلة التي تقيم لديها، وأمامها تقف البطلة راشيل في صورة تحدّت الموت كما تحدّته صاحبته على أرض الواقع.

تعود تفاصيل الواقعة -كما رواها صحفيون أجانب كانوا يغطّون عملية هدم منازل المواطنين الفلسطينيين التعسفية- إلى يوم شديد البرودة من شتاء عام ٢٠٠٣م، وهو يوم ١٦ مارس، عندما وصلت راشيل إلى حي السلام في مدينة رفح بجنوب قطاع غزة في محاولة لمنع الجرافات الإسرائيلية من هدم بيوت الفلسطينيين وتجريف أراضيهم. وجدت راشيل نفسها أمام جرافة عسكرية ضخمة تستعد لهدم بيت متهالك أفرغه جنود الاحتلال من سكانه. لم تنتظر راشيل طويلاً، فتقدّمت بمعطفها البرتقالي اللون، الذي جعلها تبدو بكلّ وضوح أمام أعين الجنود المختبئين في دباباتهم وجرّافاتهم، وفي يديها مكبّر للصوت تحاول أن تسمعهم به صرخاتها ونداءاتها لوقف العدوان، قبل أن تتحوّل هذه النداءات إلى استغاثات. اتّخذت راشيل من نفسها درعاً بشريةً لحماية المنزل، في محاولة يائسة لعلّ سائق الجرافة يتراجع أمام نداءاتها، لكن الصلف الإسرائيلي أبى إلا أن يصمّ آذانه؛ فقد ظلّ سائق الجرافة يحاول أكثر من ساعتين الوصول إلى المنزل وراشيل وفريقها السبعة من المتضامنين الأجانب يمنعونه، حتى نفد صبر الجندي فاتخذ قراره الصادم، تقدّم نحوها بسرعة مذهلة ودهسها بجرافته الأمامية، فارتمت داخل صندوق جرافته الممتلئ بالرمال، لكنه أبى إلا أن يحملها في باطن جرافته ويلقيها على الأرض تحت كوم الرمال، ويتقدم إلى الأمام ليسحقها بنصل جرافته الحديدي، ثم يعيد الكرّة فيسحقها تماماً ويلصقها بالأرض التي ناضلت من أجلها بعد أن تهشّم جسدها النحيل.

هرع إليها زملاؤها ليخرجوها من تحت الرمال، نبشوا عن نصف جسدها المتواري فأخرجوها بعد أن تحطّمت جمجمتها، وتكسّرت أضلاعها، وتهشّم عمودها الفقري. نقلوها إلى المستشفى بعد فوات الأوان، وهناك أعلن الأطباء وفاتها، أو بالأحرى حياتها؛ لتعبّر بقصة مقتلها عن معنى المأساة التي يعيشها الفلسطينيون، ومعنى التعذيب اليومي الذي تمارسه قوات الاحتلال الإسرائيلية عليهم، ولعلها كانت في أشدّ لحظات صدقها مع نفسها عندما خاطبت بني جلدتها في رسالتها الأخيرة إلى والدتها في الولايات المتحدة الأمريكية: «أعتقد أن أيّ عمل أكاديمي، أو أيّ قراءة، أو أيّ مشاركة بمؤتمرات، أو مشاهدة أفلام وثائقية، أو سماع قصص وروايات، لم تكن لتسمح لي بإدراك الواقع هنا، ولا يمكن تخيّل ذلك إذا لم تشاهده بنفسك، وحتى بعد ذلك تفكّر طوال الوقت ما إذا كانت تجربتك تعبّر عن واقع حقيقي».

والدا راشيل كوري



سندي كوري والدة راشيل خلال حفل تكريم في فلسطين:
أنا ووالدها حزينان كثيراً على فقدانها، لكننا سعداء أننا بينكم الآن، وأنكم تقدرون ما قامت به ابنتي راشيل من عمل بطولي، ستبقى ذكرى ابنتي الحبيبة في عيون العالم

براءة الجاني

ضغط البيت الأبيض الأمريكي على الحكومة الإسرائيلية للتحقيق في مقتل راشيل كوري، فعيّن الجيش الإسرائيلي لجنة تحقيق داخلية في صورة أشبه ما تكون بتحقيق شكلي إرضاءً للرأي العام، ما لبثت هذه اللجنة أن قرّرت إغلاق القضية بعد ثلاثة أسابيع فقط. ولم يعترف الجيش الإسرائيلي بشهادة شهود العيان الذين رأوا الواقعة، ومنهم صحفيون أجانب كانوا يغطّون عمليات الهدم، وأكدوا أن سائق الجرّافة تعمّد دهس راشيل، والمرور على جسدها بالجرافة مرّتين في أثناء محاولتها إيقافه، قبل أن يقوم بهدم المنزل، وادّعى الجيش الإسرائيلي أن سائق الجرافة لم يستطع رؤيتها، وأنها كانت في منطقة قتال معروفة، ولا تتحمل قوات الدفاع الإسرائيلية مسؤولية مقتلها.

وبعد معركة قضائية استغرقت سبع سنوات رفضت المحكمة المركزية في مدينة حيفا يوم ٢٨ أغسطس ٢٠١٢م دعوى مدنية رفعتها عائلة كوري تؤكّد فيها أن ابنتها قتلت نتيجة الإهمال، ووصف القاضي الإسرائيلي عوديد جرشون في قرار موسّع تكوّن من ١٦٢ صفحة مقتل كوري بأنه حادث مؤسف، متهماً الناشطة الراحلة وزملاءها من نشطاء السلام بأنهم ساعدوا الفلسطينيين على العمل ضد الجيش الإسرائيلي، وأن الجرافة العسكرية كانت تشارك في عمل حربي تحت إطلاق النار من أجل كشف المكان، مستنداً في ذلك إلى أن المنطقة الحدودية المعروفة بفيلادلفيا (محور صلاح الدين) التي قتلت فيها راشيل كانت ساحة نزاع مسلّح يومي، وأن هناك بيانات صدرت عن الحكومة الأمريكية حذّرت الأمريكيين من السفر إلى قطاع غزة. كما اعتمد القاضي على شهادة الجندي الإسرائيلي القاتل نفسه، عندما شهد عام ٢٠١٠م علناً لأول مرة من وراء حجاب بأنه لم يرَ راشيل قبل أن يسحقها بسبب كومة من الأنقاض كانت تعوق رؤيته، وأن الجرافة كانت تصدر ضجيجاً، وأنه كان يرتدي سماعات؛ فلم يسمع الصياح؛ ليقتل هذا القاضي بدم بارد راشيل كوري للمرة الثانية عندما برّأ قاتلها، وتعامل معها بوصفها إرهابيةً لا مناضلةً من أجل حقوق الإنسان، ووصف منظمتها -منظمة التضامن العالمي- بأنها منظمة إرهابية. ولم يرُق هذا الحكم الجائر لوالد راشيل كريج كوري -الجندي السابق في الجيش الأمريكي خلال حرب فيتنام- فقال: «كلما بحثنا أكثر توصّلنا إلى أنه على الأرجح كان القتل متعمداً، أو على الأقلّ كان متهوراً بشكل لا يصدق. بصفتي جندياً سابقاً كنت أقود الجرافات في فيتنام فالسائق مسؤول عن معرفة من الذي يقف أمام الجرافة، وأعتقد أن ذلك ما فعلوه».





راشيل كوري في مراحل عمرية مختلفة

تقدير شعبي

إذا كان القضاء الإسرائيلي قد برّأ قاتل المناضلة راشيل كوري، واتهمها بأنها مذنبة في حقّ نفسها لأنها لم تمتثل للأوامر العسكرية الإسرائيلية، وخاطرت بحياتها لتقف أمام الجرافة الإسرائيلية؛ فإن الفلسطينيين أبوا قبول هذا الحكم، فتظاهر احتجاجاً عليه عشرات الفلسطينيين والمتضامنين الأجانب معهم قبالة محكمة حيفا، حاملين

مسرحية تخلّد ذكرى كوري

خلّدت مسرحية (اسمي راشيل كوري)، التي أعدّها للعمل المسرحي الصحفيان في صحفية الجارديان البريطانية: آلان ريكمان، وكاترين فاينر، ذكرى راشيل كوري التي دفعت حياتها ثمناً لتضامنها مع الشعب الفلسطيني، وهي مسرحية تندرج تحت نوع المونودراما؛ أي: مسرحية الممثّل الواحد، وجالت هذه المسرحية في عدد من دول العالم.

ترجم هذه المسرحية إلى اللغة العربية الفلسطينيان: المخرج رياض مصاروة، والممثلة لنا زريق. وتروي المسرحية، التي عُرضت في مدينة حيفا عام ٢٠٠٨م في الذكرى الخامسة لرحيلها، على مدار ساعة ونصف الساعة، قصة راشيل من خلال مذكراتها، ويبدأ العرض المسرحي الذي حضره والدا كوري في قاعة مسرح لا تتجاوز أدواته سريراً عليه ملاءة حمراء ومجموعة من الكتب والمجلات وصفحات الصحف المتناثرة، وخلفية وضعت عليها مجموعة من الصور لشخصيات أحبتها كوري، منها: رئيس جنوب إفريقية السابق نيلسون مانديلا، والمناضل الأرجنتيني تشي جيفارا، وغيرهما.

قدّمت الممثلة لنا زريق في هذه المسرحية عرضاً لتفاصيل من حياة كوري، واستحضرت محطات كان لها أثر في حياتها، وتفاصيل عن الأشياء التي تحبها، وحلمها بأن تصبح أول امرأة ترأس الولايات المتحدة الأمريكية. وتناولت بداية نهاية كوري من خلال رحلتها إلى الأراضي الفلسطينية عام ٢٠٠٣م للانضمام إلى مجموعة من المتضامنين الأجانب الذين يحاولون تقديم المساعدة للشعب الفلسطيني، فأزالت زريق خلفية المسرح ليظهر جزء من خريطة قطاع غزة ومجسم لأجزاء من مقدمة الجرافة الإسرائيلية وقطع من الحجارة. وقدمت زريق على لسان كوري شهادات حية لما شاهدته بعينها من معاملة الفلسطينيين على الحواجز الإسرائيلية، وما تتعرض له منازلهم من قصف، وأراضيهم من تجريف؛ لتقدم صورةً مأساويةً لمليون ونصف المليون فلسطيني.

صور راشيل والجرافة العسكرية التي قتلتها، وأعلن مجموعة من النشطاء والمدافعين عن الحريات وحقوق الإنسان داخل الأراضي المحتلة، إضافةً إلى سياسي عرب ٤٨، تنظيم سلسلة من الفعاليات الاحتجاجية ضد قرار المحكمة، مؤكدين البدء بالتظاهر أمام المحكمة يومياً وصولاً إلى التظاهر أمام الكنيست الإسرائيلي. كما قام الفلسطينيون بتكريم عائلة كوري، فنظّمت المؤسسة العربية لحقوق الإنسان في الناصرة احتفاليةً استثنائيةً في حياة والدي كوري دعت الجمهور الفلسطيني إلى المشاركة فيها. وحضر الوالدان سندي وجريج كوري، فجالا في الناصرة، وتابعا فلماً عن حياة راشيل منذ طفولتها، وتسجيلاً لحديثها قبل مقتلها تعبّر فيه عن مشاعرها الإنسانية تجاه الفلسطينيين وصدق تضامنها معهم.

وأطلق اتحاد لجان العمل الزراعي في غزة وجمعية الشبان المسيحية في القدس اسم راشيل كوري على قطعة أرض تمّت زراعتها بأشجار الزيتون في منطقة حي السلام قرب معبر رفح ضمن برنامج (زيتون من أجل السلام)، وهي المنطقة ذاتها التي استشهدت فيها راشيل، كما أقيم نصب تذكاري تكريماً لها في الضفة الغربية.

وقدمت المخرجة الفرنسية الإسرائيلية سيمون بيتون في فلم وثائقي بعنوان (راشيل) نتائج التحقيقات التي قامت بها على مدار ثلاث سنوات بشأن ظروف وفاتها. وتضمن الفلم شهادات حية لأصدقاء راشيل من المتضامنين الأجانب الذين رافقوها في رفح، والفلسطينيين الذين استضافوها في بيوتهم، إضافةً إلى شهادات عدد من الجنود والضباط في الجيش الإسرائيلي. وركّز الفلم في الرسائل التي كانت تكتبها راشيل إلى والديها، وقدّم شهادةً لجندي إسرائيلي ذكر أنهم كانوا يطلقون النار على نوافذ البيوت وواجهاتها للتسلية، وكذلك على خزانات المياه للاستماع إلى صوت الماء المتدفق منها، وأوضح الفلم من خلال صور التقطها زملاء راشيل أن مقتلها كان متعمداً. وعُرض الفلم في الولايات المتحدة الأمريكية، وتعرّض لهجوم كبير من مؤيدي إسرائيل.

وحمل أحد مراكب أسطول الحرية اسم راشيل كوري، وهو الأسطول الذي استهدف كسر الحصار الذي فرضته إسرائيل على قطاع غزة منذ عام ٢٠٠٧م، وضمّ عشرة آلاف طنّ مواد إغاثية ومساعدات إنسانية، إضافةً إلى نحو ٧٥٠ ناشطاً حقوقياً وسياسياً، بينهم صحفيون يمثّلون وسائل إعلام دولية، وتعرّض الأسطول في ٣١ مايو ٢٠١٠م لهجوم القوات الإسرائيلية في المياه الدولية قبالة غزة، مستخدمةً الرصاص الحيّ والغاز، فقُتل تسعة وأصيب أكثر من ٢٦ متضامناً. كما أنشئ باسمها عام ٢٠١١م مركز راشيل كوري الفلسطيني لحقوق الإنسان ومتابعة العدالة الدولية، وأنشأ بعض الناشطين صفحةً لها على موقع التواصل الاجتماعي (فيسبوك) بعنوان: كلنا راشيل كوري، وتم إطلاق اسمها على بعض المؤسسات والأماكن في مناطق متفرقة من العالم.

رحلت راشيل كوري عن عالمنا منذ عقد من الزمان، لكنها ظلّت تروي بدمائها عروق المناضلين عن حقوق الشعوب وكرامة الإنسان في أنحاء العالم شتى. أراد قاتلها أن يدهسها تحت عجلات جرّافته فرفعها من حيث لا يدري إلى مصافّ الأبطال، ودهس بدلاً منها كياناً لا تهزّه صورة الدماء. لقد علّمتنا الأمريكية البريئة ابنة الأربعة والعشرين ربيعاً، التي أراق دماءها الزكية جندي إسرائيلي على تراب فلسطيني طاهر، أن قيم الإنسانية السامية لا تميّز بين جنس ولون وعرق، وأنه ينبغي على العالم أن يقف صامتاً وشاهداً يوم ١٦ مارس من كلّ عام وهو يذكر هذه القصة التي غذّت شرايينها بالدماء وسائل التكنولوجيا الحديثة وهي تنقل صورة تحدّيها للجرافة الإسرائيلية للعالم؛ لتظلّ هذه الصورة صورةً تتحدى الموت، وذكرى لا ينساها العرب، وقصةً صافيةً للإنسانية تتحدى وحشيتها.

عاشت راشيل تحلم بأن تكون شاعرة، فكتبت عن الحب والسلام، وتمنت أن يتم القضاء على الجوع في عام ٢٠٠٠م

خالطت راشيل أهل غزة، فعرفت أفراحهم وأتراحهم، ولم يكن كبير أو صغير في المدينة إلا ويعرفها



العددان ٤٤١ - ٤٤٢ / الربيعان ١٤٣٤هـ

حسين حسن حسين
هيئة التحرير

هــؤلاء وغيرهم استطاعوا أن يقولوا: لا

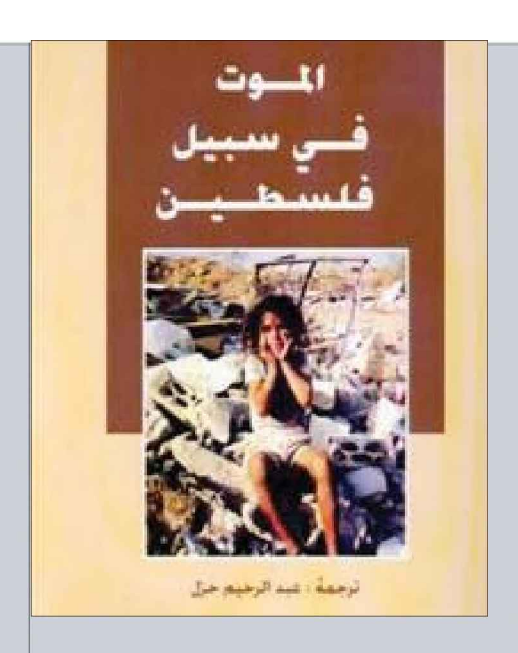
لم تكن راشيل كوري التي دفعت حياتها ثمناً لموقفها الإنساني إلا واحدةً ضمن عقد فريد من الذين انحازوا إلى إنسانيتهم؛ فدافع كلٌّ منهم عن الحق الفلسطيني بوسيلته الخاصة.

ومع ما يمكن أن يُقال من ازدواج المعايير، وإغماض بعض السياسيين أعينهم عن ممارسة الكيان الصهيوني، وحماسة بعضهم لدعم إسرائيل، وقلب الحقائق، إلا أن هناك من يفيض إنسانيةً إلى حدّ تعريضه حياته للخطر في سبيل أن يقول للظالم: لا، ويغيث المظلوم.

وينتمي كثير ممن لديهم هذه العاطفة الإنسانية إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا المتهمين بدعم إسرائيل.

لكن السؤال المهم: كيف لنا -نحن العرب- أن نستغلّ تعاطف الأمريكيين والأوربيين وغيرهم في إبراز عدالة القضية الفلسطينية، وكشف الزيف الصهيوني؟

هنا محاولة للتذكير بالمواقف العظيمة لبعض الذين ارتضوا أن يكونوا في صفّ الضعفاء والمظلومين، وتركوا وراء ظهورهم نعيم الدنيا في سبيل المبدأ، وما هذا الرصد إلا تحية إجلال وتقدير لهم، وعبرهم التحية لقوافل الخير التي يصعب حصرها في هذا الحيز الضيق.

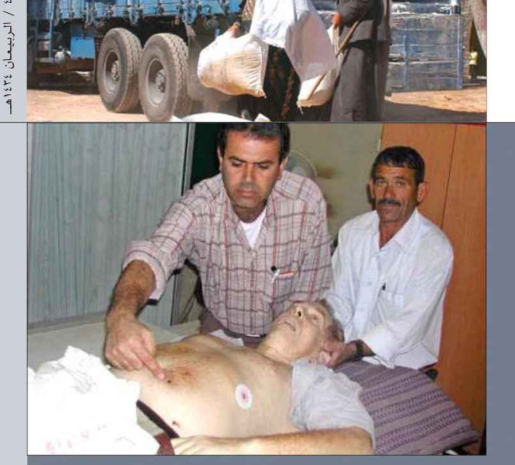


فرونسواز كيستمان.. ماتت في سبيل فلسطين

«يبدو لي أنني أتجه نحو الموت المحقق، بل إنني لأعلم ذلك علم اليقين وأطلبه، ولسوف تكون تلك أجمل ميتة مثلما هي حياتي ها هنا.. الموت في سبيل فلسطين»، تلك هي كلمات الفرنسية فرونسواز كيستمان التي استشهدت على أرض فلسطين عام ١٩٨٤م عن ٣٤ سنة وهي تدافع عن حق أهلها في العيش الكريم. جاءت لتضمّد جراح أهلها، وتضع نفسها تحت تصرّفهم؛ لتقدم إليهم ما تستطيع مما يخفف آلامهم، ولم تكتفِ بذلك، بل دافعت عنهم ببسالة، وكتبت عنهم، وسجّلت أنواع المعاناة التي يعيشونها ويتعايشون معها كالماء والخبز.

استشهدت فرونسواز على يد دورية إسرائيلية قنصتها هي وبعض الفلسطينيين، وتركت مذكراتها التي نشرها زوجها وفاءً لذكراها ودفاعاً عما كانت تؤمن به، ونُشرت بالعربية بترجمة المغربي عبدالرحيم حزل عام ٢٠٠٠م.

إيان هوك.. لم يشفع له علم الأمم المتحدة

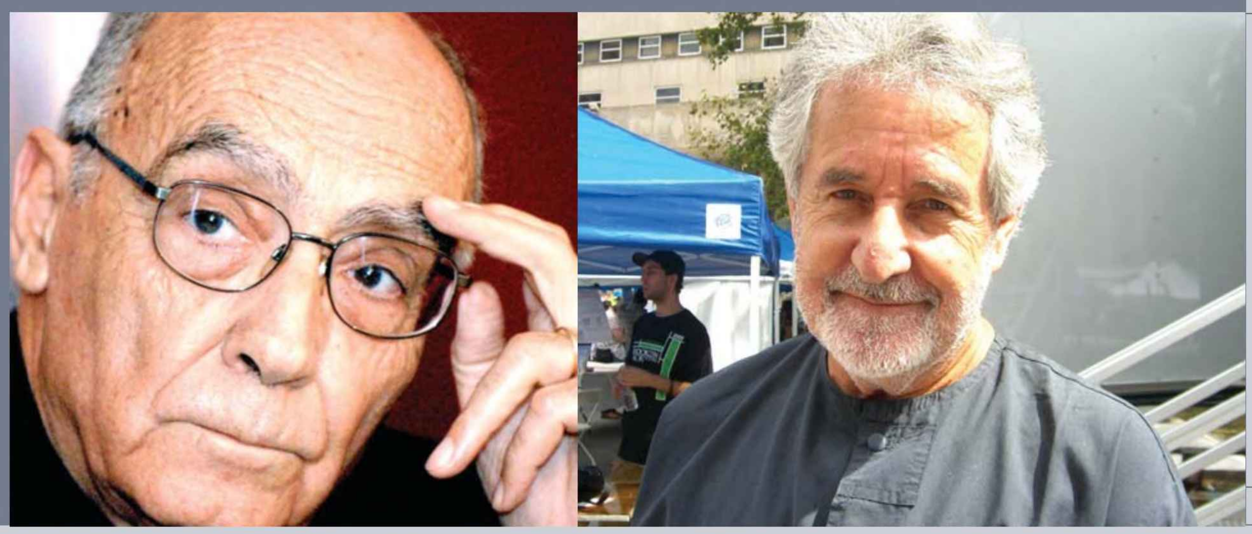


إيان هوك (٥٤ سنة) مسؤول كبير في المنظمة الدولية لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا) قتلته القوات الإسرائيلية في نوفمبر عام ٢٠٠٢م. وكان ريتشارد كوك رئيس عمليات الأونروا في الضفة الغربية قد قال: إن هوك وجميع العاملين في الأونروا يعملون تحت مظلة الأمم المتحدة، وما يحدث من القوات الإسرائيلية تجاه موظفي المنظمة الدولية غير مقبول تماماً، وأشار إلى أنه كان على اتصال مع هوك قبل دقيقة واحدة من مصرعه، كما أن هوك نفسه كان على اتصال مع مسؤولي الجيش الإسرائيلي حتى يكونوا على معرفة تامة بأنه يقوم بإخلاء موظفيه من المنطقة، ومع أنه كان يحمل علم الأمم المتحدة إلا أن قناصاً إسرائيلياً أرداه قتيلاً بدم بارد.

أدباء عالميون يدعمون الحق الفلسطيني وتجاهل إعلامي متعمد

زار عدد من الأدباء العالميين مدينة رام الله في ربيع عام ٢٠٠٢م بدعوة من الشاعر الراحل محمود درويش؛ تعبيراً عن تضامنهم مع الشعب الفلسطيني. ضم وفد الأدباء: راسل بانكس - الروائي الأمريكي - وورل سوينكا - رئيس البرلمان العالمي للكتّاب، الحائز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٨م - والبرتغالي خوسيه ساراماجو - رئيس البرلمان السابق، الحائز على جائزة نوبل للآداب - والصيني بي داوو - أحد الأعضاء المؤسسين للبرلمان - وبرايتن برايتنباخ -الشاعر والروائي والفنان التشكيلي الجنوب إفريقي - والأديب الفرنسي كرستيان سالمون - السكرتير العام لبرلمان الكتّاب العالمي - والإيطالي فيشنزو كونسولو، والإسباني خوان جويتسولو. وأصدر هؤلاء الأدباء كتاباً بعنوان: (رحلة إلى فلسطين) عن دار كليما الفرنسية، ضمّنوه انطباعاتهم، كما أنتج معهد العالم العربي في باريس فلماً تسجيلياً طويلاً بالعنوان نفسه صُوِّر في إسرائيل والأراضي الفلسطينية المحتلة في أثناء زيارة الوفد برفقة كلّ من الكاتب الفلسطيني إلياس صنبر ومندوبة فلسطين في فرنسا ليلى شهيد.

ووصف الأدباء ما يحدث من انتهاكات صارخة من الاحتلال الإسرائيلي للقيم الإنسانية بكلمات واضحة لا تحتاج إلى تأويل، فساراماجو طالب بقرع الأجراس في العالم؛ لأن ما يحدث في فلسطين من جرائم ضد الإنسانية يشابه جرائم النازية، ويجب أن تتوقف. ووصف برايتنباخ الوضع بأنه أسوأ مما كان في جنوب إفريقية إبّان الفصل العنصري. وقال الفرنسي إيتيان باليبار: إن الأفق الإنساني في القضية الفلسطينية يجمع كلّ الذين يقفون ضد الظلم والعسف، وينادون بالتحرّر؛ مثل: الفرنسي جان جينيه الذي كان شغفه بالفلسطينيين إبّان الكفاح الفدائي مثالياً، وأشعار اليوناني يانيس ريتسوس، والفرنسي يوجين جيفيليك، ومواقف الداغستاني رسول حمزاتوف، والبريطاني هارولد بنتر.



برايتنباخ ساراماجو



هارولد فيشر.. عاشق فلسطين

طبيب ألماني استقرّ في فلسطين منذ عام ١٩٨١م، وتزوج فلسطينية، وتعايش مع القضية، وحاول أن يكون إيجابياً بالإسهام في تقديم المساعدات الإنسانية. في أحد أيام نوفمبر عام ٢٠٠٠م خرج من منزله قاصداً إسعاف فلسطينيين أصيبوا في قصف إسرائيلي، فكانت من نصيبه قذيفة أودت بحياته؛ ليموت على الأرض التي أحبها وتعاطف مع أهلها إيماناً بعدالة قضيتهم.

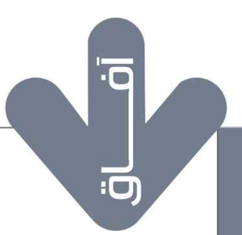
آنا.. تحدت الصعاب من أجل لينا



قصة آنا ولينا تؤكّد أن الإنسانية تذيب الفوارق، وتمنح إحساساً بأن الناس جميعاً من أصل واحد، وهي كافية إذا سيطرت للقضاء على كل أسباب التوتر والنزاع في العالم.

زارت آنا ويكس الضفة الغربية مرات كثيرة تعاطفاً مع الشعب الفلسطيني في مواجهة الجدار العنصري العازل، كما لو أنها تستحضر تجربة بلدها جنوب إفريقية المريرة في ظلّ العنصرية التي كانت تسود فيها قبل أن يحطّم مانديلا الجدار العنصري، ويبني جسوراً من الثقة بين أبناء شعبه بغضّ النظر عن لونهم وانتمائهم.

آنا هي بريطانية الأصل تحمل جنسية جنوب إفريقية، وكانت قد حدّدت يوم زفافها إلى عريسها منديس، لكنها علمت أن لينا فريد طعمة الفلسطينية، وأبوها إعلامي تعرّفت إليه في أحد المؤتمرات، في حاجة إلى كلية، ولا تصلح لها كلية أبيها، وتختلف فصيلة دمها عن فصيلة دم أمها. قرّرت آنا ويكس أن تمنح لينا كليتها، وأجّلت زفافها لتحضر إلى الضفة في هذه المهمة الإنسانية، لكنها واجهت رفضاً إسرائيلياً بتعنّت واضح، خصوصاً أن لها سوابق مع السلطات الإسرائيلية التي اعتقلتها وأبعدتها من قبل، حتى اضطرت إلى تغيير جواز سفرها؛ لذا كان حصولها على تأشيرة دخولها أمراً صعباً إلى حدّ بعيد، إلا أنها بإصرار شديد حصلت عليها عن طريق محامية. وعند وصولها اعتقلت في المطار، وما كان لها أن تدخل إسرائيل إلا بعد تدخّل وزير داخليتها، ثم كان الشرط ألا تذهب إلى الضفة الغربية. تجاوزت آنا كلّ الصعاب لتقوم بمهمتها الإنسانية؛ لتقدم كليتها إلى الطفلة، وبعد ذلك تزوّجت خطيبها في حفلة فلسطينية.



إيميلي وعبدالله.. قصة حب نسجت خيوطها المعاناة

إيميلي واشمان (٢١ عاماً) أمريكية من مدينة دالاس في ولاية تكساس الأمريكية، والدها رجل أعمال بالغ الثراء، تعاطفت مع قضية الشعب الفلسطيني، فانضمت إلى حركة التضامن الدولية، وتركّز عملها في قرية دير الغصون بشمال طولكرم، وهي قرية يعاني أهلها جدار الفصل العنصري، وتتعرّض كلّ يوم لاستفزازات المحتلّ الإسرائيلي، وكان عبدالله طبال الطالب في المرحلة الثانوية متطوعاً وداعماً للحركة التي شملت بإنسانيتها أهل قريته.

أقامت إيميلي في معسكر بالقرية التي تتعرّض للظلم، وقطع الأرزاق، ومصادرة الأراضي، واجتياحات واعتقالات وهدم للمنازل، حتى أصبحت سجناً لأهلها. وبرز عبدالله طبال ضمن المجموعة الداعمة للحركة، وكان لافتاً للانتباه بنشاطه وذكائه، لكن ما قرّب المسافة بينه وبين إيميلي إطلاق الجنود الإسرائيليين قنابل غاز مسيلة للدموع على إحدى مظاهرات أهل القرية؛ مما أدى إلى سقوط عبدالله مغشياً عليه، فاندفعت إيميلي لتقديم الإسعاف اللازم له، ونقله إلى أقرب مستشفى.

توطّدت العلاقة بين الاثنين، وسافرت إيميلي إلى بلادها، لكن قلبها كان معلقاً بعبدالله وأسرته وأهل قريته، فبقي الاتصال بينهما مستمراً، بل كانت تتابع أخبار الأسرة المكوّنة من ١٦ شخصاً، وكانت تحرص على محادثة الجميع والتواصل معهم.

لم يعُد في الإمكان إخفاء أيّ منهما شعوره عن الآخر، فتعاهدا على الزواج على الرغم من صغر سنّيهما؛ فعبدالله (١٨ عاماً) وإيميلي (٢١ عاماً)، وعليهما إكمال دراستهما، لكنهما قرّرا التعجيل بالارتباط، والتفكير في الآتي بعد ذلك.

وفي ليلة فلسطينية ارتفعت فيها أصوات الأهازيج الشعبية، وعروض الفلكلور الفلسطيني، تزوّج الاثنان؛ ليبدأا حياةً جديدةً مع أول يوم من عام ٢٠٠٤م، ولتعيش القرية ليلة من الفرح لعلها تخفف عن أهلها المعاناة التي هي سمة حياتهم.

رفاييلي تشيرللو.. قتله البحث عن الحقيقة



رفاييلي تشيرللو مصوّر إيطالي جاء لينقل الأحداث من أرض الواقع؛ حتى يمكن نشرها في صحيفة كوريرا ديلا سيرا الإيطالية بالكلمة والصورة، وكان عمره آنذاك ٤٢ عاماً، ولم يكن يدري أن مهنيته ستقوده إلى منيته؛ ففي ١٣ مارس عام ٢٠٠٢م، بينما كان يوثّق بالصور عدوان الجيش الإسرائيلي على مخيم قدورة في وسط رام الله، عاجله جندي إسرائيلي برصاصات قضت عليه في الحال، وما كان هذا الجندي إلا منفذاً للأوامر.

الرياضيون في العالم

مستعدون لدفع ثمن دعم فلسطين

لم يتخلّف الرياضيون في العالم عن مناصرة القضية الفلسطينية، وإبراز تعاطفهم مع الشعب الفلسطيني، خصوصاً مع غزة في الحصار الإسرائيلي الجائر عليها، الذي مثّل مأساةً إنسانيةً أفاضت المشاعر النبيلة على نفوس كثيرين، ودفع كثير من الرياضيين ثمناً باهظاً بسبب مواقفهم الإنسانية.

دييجو مارادونا -اللاعب الأرجنتيني السابق، والمدرب الحالي، وأحد أشهر من داعبوا الساحرة المستديرة- ظلّ يعلن ثباته على دعم القضية الفلسطينية، بل وصف نفسه بالداعم الأول للقضية الفلسطينية، مهما أغضب ذلك كثيرين في العالم.

وتبرّع كريستيانو رونالدو -اللاعب البرتغالي الشهير في صفوف فريق ريال مدريد الإسباني- بحذائه الرياضي الخاصّ ليباع في مزاد علني، مخصّصاً عائدات المزاد لبناء مدرسة لأطفال قطاع غزة.

ووصف إيكر كاسياس -الحارس الإسباني- ما حدث في غزة بأنه كارثة حقيقية بسبب الأعمال الوحشية ضد الفلسطينيين، كما أبدى استعداده للمشاركة في أسطول الحرية ٢. وتضامن معه رافائيل نادال -لاعب التنس، والمصنف الأول عالمياً- في رفض الوحشية التي تمارسها إسرائيل.

وأعلن اللاعب التشيلي أرتورو فيدال -أحد نجوم فريق يوفنتوس الإيطالي- تضامنه على صفحته الشخصية على موقع التواصل الاجتماعي (فيسبوك)، وكتب: «لا لإسرائيل، لا للصهيونية، فلسطين حرة، نريد عدالةً في جميع أنحاء العالم».

أما فريدريك كانوتيه -لاعب بكين جوان الصيني، ومهاجم سيفيليا وتوتنهام سابقاً، واللاعب الدولي المالي- فقد أظهر تعاطفه بلبس قميص داخلي باللون الأسود يحمل اسم فلسطين بعدة لغات، وإظهاره بعد تسجيله هدف الفوز لفريقه في مباراة بطولة كأس إسبانيا لكرة القدم؛ مما عرّضه لعقوبة مالية.

وأبدى مسعود أوزيل -لاعب ريال مدريد الإسباني- شديد حزنه وأسفه على استشهاد لاعب في غزة كان يلعب الكرة، وقال: «هذا



فريدريك كانوتيه

الطفل الصغير قُتل عندما كان يلعب كرة القدم، ويلبس قميصي، أنا ألعب من أجلكم. الحرية لغزة، الحرية لفلسطين».

وتعرّض مارسيلو فييرا -اللاعب البرازيلي في صفوف ريال مدريد الإسباني- لإغلاق صفحته الخاصة على موقع التواصل الاجتماعي (فيس بوك) بعد تعليقه على صورة شاب فلسطيني ملثّم يحمل مقلاعاً بقوله: «قلبي مع الفلسطينيين الآن في قتالهم مع إسرائيل».

وعبّر مجيد بوقرة -اللاعب الجزائري المحترف في صفوف فريق رينجرز الأسكتلندي- عن مساندته لإخوانه في غزة ضد وحشية العدوان الإسرائيلي، وأصرّ على عدم المشاركة في أيّ مباراة ضد أيّ نادٍ إسرائيلي.

وتوشّح رفيق جبور -اللاعب الجزائري المحترف في صفوف فريق أيكا أثينا اليوناني- بالكوفية الفلسطينية عقب انتهاء إحدى المباريات؛ ليعبّر عن تعاطفه مع غزة.

وكان ٥٩ من لاعبي الدوريات الأوربية والآسيوية، من بينها البطولة الفرنسية والإسبانية والتركية والإنجليزية، قد وقّعوا بياناً ضد استضافة إسرائيل كأس أوربا للناشئين في يونيو ٢٠١٣م، وأشار البيان إلى أن القوات الإسرائيلية هاجمت ملعب لكرة قدم في غزة في ١٠ نوفمبر ٢٠١٢م، وقتلت أربعة لاعبين في سنّ المراهقة، وتعتقل اثنين من اللاعبين من نادي العماري في إسرائيل من دون تهمة أو محاكمة.



نجوم العالم يتعاطفون مع الشعب الفلسطيني

أبدى كثير من الفنانين والأدباء المشاهير في العالم تعاطفهم مع الشعب الفلسطيني، وطالبوا في عدة مناسبات برفع الظلم عنه، وكفّ يد العدوان؛ فقد شارك في أسطول الحرية الروائي السويدي هيننج مانكل (٦٣ سنة)، الذي زار فلسطين عدة مرات، وشبّه ممارسات إسرائيل فيها بسياسة التمييز العنصري سابقاً في جنوب إفريقية، وأعلن أنه يفكّر في إيقاف ترجمات رواياته إلى العبرية، وقال مانكل: إنه بهذه المشاركة يمارس إنسانيته التي جعلته سابقاً يتبرّع لبناء قرى للأيتام في موزمبيق. وقال الكاتب والموسيقي السويدي درور فيلر: إن نشاطه الإنساني هدفه مساعدة أهل غزة على البقاء أحياء. وعبّرت الأيرلندية ميريد ماجواير - الحائزة على جائزة نوبل للسلام - عن صدمتها من الحالة الإنسانية في غزة.

ومن الذين أبدوا تعاطفاً مع أحوال الفلسطينيين في ظلّ الاحتلال الإسرائيلي وممارساته الوحشية كتّاب وفنّانون فرنسيون طلبوا من نيكولا ساركوزي -عندما كان في الرئاسة- إرسال سفينة مستشفى إلى شاطئ غزة لمعالجة الجرحى الفلسطينيين، وهؤلاء هم: ريمون أوبراك، وجيل بيرو، ومونيك شومنليه، وريجيس دوبريه، وروني برومان، وميري مندس فانون (ابنة فرانز فانون). ومن اليونان: ستاماتيس بوليناكيس الذي قال: إن إسرائيل «دخلت في جنون قاتل بشكل كامل، ويستدعي تصرّفها الحيواني جرائم النازية ضد ضحاياها»، ومواطنه يورجوس كاريبيدس.

ومن نجوم السينما الأمريكية من أعلن تعاطفه؛ مثل: داستن هوفمان الذي قال: إن البشرية أخذت في الانقراض منذ تأسّست دولة إسرائيل، وأنتوني هوبكنز الذي قال: إن إسرائيل تعني الحرب والدمار، وإنه يشعر بالخجل من كونه أمريكياً؛ لأن بلاده تقف خلفها. وطالبت أنجيلينا جولي العالم بكشف حقيقة إسرائيل، ووصف ميل جبسون الصهاينة بأنهم منبع الدمار في العالم، وشاركت جين فوندا في تظاهرة في القدس مع دعاة سلام إسرائيليين ضد الاحتلال.



تشومسكي

هيننج مانكل

فيتوريو أريجوني..
القتل غدراً

مراسل صحفي وكاتب وناشط إيطالي، انضم إلى حركة التضامن العالمية الداعمة للفلسطينيين في قطاع غزة، وقدّم مع ٤٤ ناشطاً أوربياً وأمريكياً، وإسرائيلياً أيضاً، أطرافاً اصطناعية، وسماعات للأذن، وبالونات للأطفال؛ بهدف كسر حصار قطاع غزة. وبعد تولّي حماس السلطة في قطاع غزة في يونيو عام ٢٠٠٧م كان أريجوني يستقلّ أول سفينة وصلت إلى ميناء غزة، ووصف أريجوني لحظة وصوله بأنها «واحدة من أسعد لحظات حياته».

ظلّ أريجوني ينشر تقارير صحفية عن معاناة الفلسطينيين تسبّبت بتهديده بالقتل من موقع إلكتروني أمريكي يميني متطرف، كما كان أريجوني يعبّر عن آرائه من خلال مدونته Guerrilla Radio (إذاعة حرب العصابات)، ووضع كتاباً عن تجربته في غزة إبّان الحرب الإسرائيلية على غزة.

وُلد أريجوني في مدينة بيسانا بريانزا بالقرب من ميلان في إيطاليا، وخلال ترحاله حول العالم زار مدينة القدس عام ٢٠٠٢م، وتعاطف مع أوضاع الفلسطينيين، وكتب وشماً في ذراعه الأيمن يتضمن كلمة (المقاومة) باللغة العربية كأنه يسير على خطا جده الذي قاوم النظام الفاشي في إيطاليا. اختطفته يوم ١٤ إبريل ٢٠١١م مجموعة تطلق على نفسها سرية الصحابي محمد بن مسلمة، مطالبةً الحكومة الفلسطينية في غزة بالإفراج عن معتقلين سلفيين على رأسهم زعيم جماعة التوحيد والجهاد هشام السعيدني، وتم إعدام أريجوني قبل انتهاء المهلة المحددة للحكومة الفلسطينية، ووُجدت جثته في منزل مهجور شمال قطاع غزة؛ لتلقي هذه الجريمة البشعة بظلالها، ويسأل الجميع: عن أيّ ذنب قُتل أريجوني؟ ومن المستفيد من هذه الجريمة؟

توم هرندل.. مات فداءً لأطفال فلسطين

توم هرندل ناشط سلام بريطاني قُتل على يد الجيش الإسرائيلي في ١٣ يناير عام ٢٠٠٤م بعد غيبوبة دامت تسعة أشهر، ولم يكن قد بلغ ٢٣ عاماً بعدُ. وكان هرندل طالباً للتصوير الفوتوغرافي، وعضواً في حركة التضامن الدولية، وكان اغتياله في أثناء مشاركته في مظاهرة في مدينة رفح ضد ممارسات قوات الاحتلال الإسرائيلية في حق الشعب الفلسطيني برصاصة في الرأس أطلقها جندي إسرائيلي، وكان هرندل يحاول استخدام جسده درعاً لحماية مجموعة من الأطفال الفلسطينيين، وكان يحتضن طفلةً فلسطينيةً من أجل حمايتها من النيران الإسرائيلية.

وضعت أمه جوسلين هرندل كتاباً عن سيرة حياته بعنوان: (تحدّي النجوم: حياة توم هرندل وموته المأساوي Defy the Stars: The Life and Tragic Death of Tom Hurndall)، صدر في شهر إبريل عام ٢٠٠٧م.

أدباء ومفكرون قالوا ما يتحتم قوله عن إرهاب الدولة



أليس ووكر

الأديبة الأمريكية أليس ووكر لها دور كبير في محاربة كلّ أشكال العنصرية، والتعاطف مع القضية الفلسطينية؛ فقد وقفت ضد الحرب على العراق، وألقي القبض عليها خلال مظاهرة خارج البيت الأبيض عام ٢٠٠٣م.

كانت أليس ووكر واحدةً من بين أكثر من خمسين موقعاً على رسالة احتجاج على مهرجان تورونتو السينمائي؛ إذ أدانت إسرائيل، ووصفتها بأنها نظام فصل عنصري.

سافرت أليس ووكر في مارس عام ٢٠٠٩م مع مجموعة من الناشطين، بينهم ٦٠ امـرأة، من أجل مناهضة الحرب على قطاع غزة، وفكّ الحصار عنها، وشاركت في أسطول الحرية، ووصفت إسرائيل بأنها منظمات إرهابية، ورفضت ترجمة روايتها (اللون القرمزي) الصادرة عام ١٩٨٢م، والحائزة على جائزة بوليتزر، إلى اللغة العبرية؛ بسبب سياسة الفصل العنصري التي تتبعها إسرائيل.

وشارك المفكّر نعوم تشومسكي في أعمال المؤتمر الدولي الأول للغة الإنجليزية وآدابها واللسانيات، الذي نظّمه قسم اللغة الإنجليزية في كلية الآداب بالجامعة الإسلامية في غزة خلال يومي السبت والأحد ٢٠-٢١ أكتوبر ٢٠١٢م، وعبّر عن سعادته بزيارة غزة بعد أن حُرم من ذلك مرات كثيرة. ووصف الحصار الإسرائيلي المستمر لقطاع غزة بأنه عمل إجرامي لا مسوّغ له، وقال: إسرائيل تدرك أنها تستطيع اقتراف أيّ جريمة من دون أن يحاسبها أحد في العالم كله. وحيّا تشومسكي الشعب الفلسطيني الذي لا يزال يخوض أروع التجارب، ويقدم التضحيات المتلاحقة في سبيل تحرير الأرض، ونزع الحقوق الفلسطينية.

ولا يُخفي الأديب الألماني جونتر جراس وقوفه ضد سياسات إسرائيل، التي يصفها بأنها الأخطر على السلام العالمي، وحملت قصيدة له عنوانها (ما يتحتّم قوله)، نُشرت في صحف: زود دويتشه تسايتونج الألمانية، ولاريبوبليكا الإيطالية، ونيويورك تايمز الأمريكية، اتهامات لإسرائيل بأنها تمثّل التهديد الحقيقي للسلام في العالم، منتقداً سياسة بلاده ومساعدتها العسكرية لإسرائيل.



أسطول الحرية.. صراع الخير والشر

قافلة أسطول الحرية عون إنساني عالمي من أجل كسر الحصار الإسرائيلي لغزة، وتشكّلت القافلة من ثماني سفن، هي: ماڤي مرمرة، وغزة، وشلنجر ١، وشلنجر ٢، وEleftheri Mesogeios، و Sfendoni.

وبعد تعطّل سفينتين انطلق أسطول السفن من موانئ جنوب أوربا وتركيا؛ لتلتقي جميع سفنه قبالة مدينة ليماسول في جنوب قبرص قبل التوجه إلى القطاع مباشرةً في ٢٩ مايو عام ٢٠١٠م، محملاً بعشرة آلاف طن من التجهيزات والمساعدات، وعلى متن السفن مئات الناشطين الساعين إلى كسر الحصار بعد أن دام ثلاث سنوات، وينتمي هؤلاء الناشطون إلى ٥٠ دولة مختلفة، منهم أعضاء في البرلمان الأوربي والألماني والإيطالي والأيرلندي، وأعضاء آخرون في البرلمان التركي والمصري والكويتي والمغربي والجزائري والأردني، وكذلك أعضاء عرب من الكنيست الإسرائيلي، إضافةً إلى أكثر من ٧٥٠ شخصية ناشطة في المجال الحقوقي، وإعلاميون من وسائل الإعلام المختلفة؛ مما شكّل منظومة إنسانية تؤكّد أن هناك كثيرين في هذا العالم لا يزالون يتمتعون بضمائر حية ترفض الظلم، وتتعاطف مع المظلوم، بغضّ النظر عن انتمائه.

كان المخطط استقبال أسطول الحرية في مرفأ الصيد الصغير الذي يقع غرب مدينة غزة بأسطول من القوارب يتشكّل من ١٠٠ قارب فلسطيني. وكانت إسرائيل تهدد في الوقت نفسه باستخدام القوة لاعتراض القافلة، وترحيل الناشطين الموجودين على متنها. وبالفعل، نفّذت إسرائيل تهديدها، وفوجئ العالم في فجر يوم ٣١ مايو عام ٢٠١٠م بهجوم القوات الإسرائيلية على الأسطول، وقتلها تسعة من الناشطين، وإصابة أكثر من ٢٦ منهم، في جريمة إنسانية تثبت للعالم الوحشية التي تمارسها إسرائيل على الفلسطينيين.

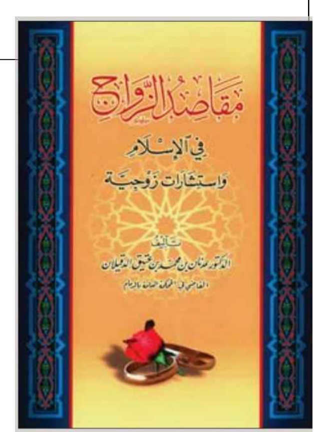
وفي مقابل هذا التعاطف الإنساني من ناشطين ينتمون إلى عدة دول أطلّت السياسة بوجهها القبيح؛ ليطالب ٨٧ عضواً في مجلس الشيوخ الأمريكي عدّ مؤسسة الإغاثة الإنسانية التركية منظمةً إرهابيةً، ويشيدوا بموقف الإدارة الأمريكية الداعم لإسرائيل في مجلس الأمن.

جيمس ميلر.. قتله إبداعه

جيمس ميلر منتج ومخرج ومصوّر صحفي من ويلز، كان يعمل لمصلحة هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي)، وكان مبدعاً في مجاله؛ إذ نال عدداً من الجوائز، منها خمس جوائز إيمي.

جاء ميلر إلى قطاع غزة لتصوير فلم وثائقي بعنوان: (الموت في غزة Death in Gaza) عن الأطفال على كلا جهتي النزاع، فقتل برصاص انطلق من عربة إسرائيلية مدرّعة في اليوم الأخير من وجوده في غزة قبل أن يقوم بتصوير الجانب الآخر من القصة، وترك ميلر طفلين، وكان عمره ٣٥ عاماً حين اغتيل في ٢ مايو عام ٢٠٠٣م وهو يرفع العلم الأبيض، وأثبت تحقيق الجيش الإسرائيلي مسؤولية من اغتالوه غدراً وهم يعرفونه، وما كان لهذا التحقيق أن يتم لولا ضغط بريطانيا وأسرة ميلر.

مقاصد الزواج في الإسلام



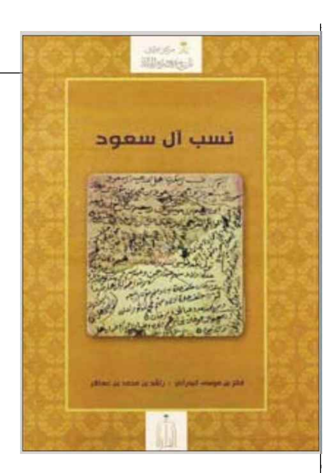
يستهلّ الدكتور عدنان بن محمد بن عتيق الدقيلان -القاضي في المحكمة العامة بالدمام- كتابه (مقاصد الزواج في الإسلام واستشارات زوجية)، من نشر دار ابن الجوزي بالدمام، بقوله: «الزواج باب للخيرات، ومدخل للمكاسب العديدة للفرد والمجتمع، ولذلك فإن من يشرع في الزواج طاعةً لله، واقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم، فإنه يجد العون من الله؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: ثلاثة حقّ على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف. وبذلك يصبح الزواج عبادةً خالصةً لله يُثاب المقبل عليها».

بدأ المؤلف كتابه، الذي يقع في ١٥٧ صفحة من القطع المتوسط، بتمهيد عرّف فيه مقاصد الزواج في الإسلام من خلال ستة مطالب، هي: مقصد المحافظة على النسل بالزواج، ومقصد المحافظة على النسب بالزواج، ومقصد تحقيق السكن النفسي والروحي بالزواج، ومقصد تحقيق الفطرة الإنسانية وإشباعها بالزواج، ومقصد الكفالة الاجتماعية بالزواج، ومقصد التعارف بين الناس بالزواج.

ثم تناول المؤلف اثنتين وعشرين استشارةً زوجيةً، أورد فيها الاستشارة وجوابه عنها، ومن هذه الاستشارات: ما أقبح أن تهمل المرأة نفسها، وهذه الفعلة حطّمت حياتي، والزواج من النصرانية، وحياتي تنهار يوماً بعد يوم، وما أعجب زواج أخي، وإدمان وخيانة فأين الشرف؟.

والكتاب في أصله بحث قدّمه المؤلف إلى مؤتمر (تمكين الأسرة في الشريعة الإسلامية)، الذي عُقد في المدة من ٩-١٠ رجب ١٤٢٩هـ/ ١٢-١٣ يوليو ٢٠٠٨م في كلية الشريعة بجامعة دمشق، وأضاف إليه المؤلف عند طبعه الجزء الخاصّ بالاستشارات الزوجية، وهي استشارات أسرية أجاب عنها في موقع (المستشار) المتخصّص في تنمية الأسرة، ويظهر من خلالها أثر المقاصد الشرعية من الزواج في الحياة الزوجية.

نسب آل سعود



صدر عن مركز توثيق تاريخ الأسرة المالكة، التابع لدارة الملك عبدالعزيز بالرياض، كتاب (نسب آل سعود)، لمؤلفيه: فائز بن موسى البدراني، وراشد بن محمد بن عساكر.

يقع الكتاب في ١٩٥ صفحة من القطع المتوسط، ويفصل الحديث حول نسب آل سعود، ويشير إلى اختلاف المصادر التاريخية في ذكر نسب هذه الأسرة الكريمة؛ فمنها مصادر نسبتها إلى بني حنيفة من بني بكر بن وائل، أو إلى وائل مباشرة، أو إلى المصاليخ من عنزة، أو إلى عنزة مباشرة، أو إلى غير ربيعة. ويشير الكتاب إلى الراجح من هذه الأقوال، وهو نسبة هذه الأسرة إلى بني حنيفة من بكر بن وائل، مؤيداً ذلك بعدد كبير من الأدلة القاطعة.

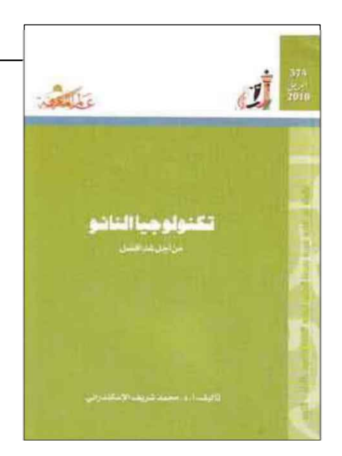
احتوى الكتاب على: تقديم للدكتور فهد بن عبدالله السماري الأمين العام لدارة الملك عبدالعزيز، ومقدمة للمؤلفين، وفصلين، وخاتمة، وملحق للوثائق، وثبت بالمصادر والمراجع، وكشاف عام.

ضمّ الفصل الأول (مدخل تمهيدي) أربعة مباحث، هي: بنو حنيفة ونسبهم وديارهم، وبكر بن وائل وأهم بطونها، واستطراد في قبائل عنزة بن أسد، وأشهر أُسر بني حنيفة في هذا العصر. وشمل الفصل الثاني (نسب آل سعود في المصادر التاريخية) ستة مباحث، تناول كل مبحث أحد الأقوال المختلف فيها في نسبة هذه الأسرة.

كما تضمّن الكتاب إيضاحاً من صاحب السمو الملكي الأمير سلمان

بن عبدالعزيز آل سعود -ولي العهد، نائب رئيس مجلس الوزراء، وزير الدفاع- بخصوص تاريخ الدولة السعودية ونسب الأسرة المالكة، وما دار من معلومات عنهما خلال حلقات النقاش التي عرضتها قناة المستقلة الفضائية، وأدارها الدكتور محمد الهاشمي مع ضيفه الدكتور عبدالرحمن الفريح.

تكنولوجيا النانو من أجل غدٍ أفضل



صدر هذا الكتاب في إبريل ٢٠١٠م ضمن سلسلة دار المعرفة، وهي سلسلة شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت، وهو من تأليف الدكتور محمد شريف الإسكندراني.

يبلغ عدد صفحات الكتاب ٣٢٨ صفحة من القطع الصغير، وهو مزوّد بكثير من الرسوم والأشكال والصور الإيضاحية العلمية. ويتألف الكتاب من ثلاثة أبواب، تحتوي على ١٤ فصلاً. يمثّل الباب الأول مدخلاً ميسّراً لعلم النانو وتكنولوجيته، ويقدّم الفصل الأول منه عرضاً شاملاً لتلك التكنولوجيا، مستعرضاً نشأتها، وتطبيقاتها المتنوعة في المجالات المختلفة، بينما يقدم الفصل الثاني خلفيةً ميسّرةً عن أهمية المواد بالنسبة إلينا، وتطور العلوم الطبيعية الذي أدى إلى تغيّر مفهومنا عن المادة وخواصها. أما الفصل الثالث فيتحدث عمّا تمثّله الذرة والجزيئات من أهمية كبيرة في تحديد صفات العناصر والمركبات، وكيف أن التلاعب بها يؤدي إلى تغيير في تلك الصفات، ويقدم الفصل الرابع استعراضاً شاملاً للمواد التي نستخدمها في حياتنا اليومية، وكيف تطوّرت.

ويتناول المؤلف في الباب الثاني كيفية الربط بين علم النانو وتكنولوجيته؛ إذ يفتتحه بالفصل الخامس الذي يركّز في المواد النانوية، وتصنيفاتها، والخواص الفريدة التي تتمتّع بها. كما يوضّح الفصل السادس التقنيات الخاصة المختلفة المتّبعة في إنتاج المواد النانوية، ويعرض أيضاً التقنيات الخاصة باختبارات تلك المواد. أما الفصل السابع فقد خصّص لإيضاح أهمية الكربون ومواده النانوية، مثل أنابيبه النانوية في تطبيقات النانو تكنولوجيا. ويعرض الفصل الثامن نماذج وأمثلة لمواد نانوية متنوعة، موضحاً طرائق إنتاجها، وأهميتها التكنولوجية.

ويعرض الباب الثالث والأخير بعض التطبيقات المبنية على تكنولوجيا مجالات الطب والرعاية الصحية من خلال الفصل التاسع، بينما يتناول الفصل العاشر الزراعة والغذاء، ويتحدث الفصل الحادي عشر عن حماية البيئة والتصدي لملوّثاتها، ويتناول الفصل الثاني عشر صناعة الإلكترونيات، بينما يستعرض الفصل الثالث عشر صناعة الحسّاسات وأجهزة الاستشعار.

ويختتم الكتاب أبوابه وفصوله بالفصل الرابع عشر الذي يقدّم البعدين الاجتماعي والاقتصادي لتكنولوجيا النانو، وآثارها الاجتماعية في العالم، مستعرضاً المنافسة الشرسة القائمة بين الدول المنتجة لهذه التكنولوجيا، إضافةً إلى مناقشته المردودين الاجتماعي والاقتصادي لهذه التكنولوجيا المتقدمة، وكيفية الاستفادة من مخرجاتها المبتكرة في البلدان العربية والدول النامية؛ بهدف النهوض باقتصادها، وتضييق الفجوة التكنولوجية القائمة بين معسكري دول الشمال والجنوب النامي. كما يوضّح هذا الفصل الموقف الحالي لدول العالم العربي من تكنولوجيا النانو، وكيف يمكن عدّها واحدةً من الإستراتيجيات المهمة في دعم خطط التنمية وتعزيزها.

ويحوي الكتاب كثيراً من النتائج البحثية والتطبيقية الخاصة بعدد وافر من العلماء العاملين في مجال تكنولوجيا النانو على مدار الثلاثين عاماً الماضية في أسلوب سهل ومبسّط يتناسب مع القارئ المثقف من خارج التخصّص؛ لذلك استعان بكثير من الرسوم والأشكال، إضافةً إلى تجميعه المصطلحات التقنية والفنية في صورة معجم مصغّر أُلحق بنهاية الكتاب.

تعليم الأطفال: الحفز أولاً وأخيراً

عبدالله بن صالح بن محمد
تونس العاصمة - تونس

تعدّ المناهج التربوية الحديثة الطفل المتعلم أساس العملية التربوية ومحورها على حدّ سواء؛ فمن خلالها يتمكن الطفل من اكتشاف المعرفة بنفسه، وهو أسلوب يقوم على أنقاض مبادئ التربية التقليدية التي تعتمد التلقين أساساً؛ أي: يكون المتعلم مجرّد متقبّل للحقائق التي يحفظها ويستحضرها ثانيةً؛ فالمنهج التقليدي يقوم على فصول وتلاميذ جالسين أنسوا الصمت والتسليم بما يُلقى على مسامعهم من دون الحاجة إلى نقاش أو حراك، والمدرس يملأ السبورة كتابات ورسوماً ومعادلات قد يستوعبها بعضهم حيناً، وقد تستحيل على كثير منهم، وهو تكرار نمطي يفضي في أغلب الأحيان إلى ملل الملقّن والمتقبّل؛ فعلاقة المدرس بالأطفال المتقبّلين علاقة نمطية عمودية في فصول تغيب فيها روح الإبداع والابتكار والتفكير الحر الذي يتبلور مع توافر أنشطة الإبداع والخلق (تصور المشروعات وإنجازها، أو المساهمة في التخطيط لها، وعرض المشكلات والمسائل، والتدريب على إيجاد حلول لها)، إضافةً إلى الأنشطة الإبداعية (سماع القصص والحكايات أو مطالعتها، والفنون التشكيلية، والنحت، والموسيقا)؛ لما لها من دور في تنمية التذوق الحسي والجمالي عبر تذوّق جمال الأشكال والألوان، وسماع الموسيقا والأناشيد، والغناء، والإلقاء، والتمثيل.

تُطبّق في المدرسة مناهج تربوية لم تعُدْ تستجيب لتطلعات أمم وشعوب تراهن على مستقبلها بقدرة أبنائها، ودرجة ذكائهم وتعليمهم. قد ترقى هذه المدرسة إلى تطلعات بعض الآباء الذين يرون في قدرة ابنهم على حفظ المعلومات، واستعراضها في البيت أو يوم الامتحان، نجاحاً بل تميّزاً، لكن في الواقع لا تضيف المعلومات والحقائق المكتسبة والمشحونة زاداً إلى الطفل، ولا يمكن أن تنمّي فيه التفكير المنهج مع الاستدلال والبرهنة، أو القدرة على حلّ الإشكاليات والوضعيات الشائكة التي قد تواجهه رجلاً في الغد.

ومع التقدم العلمي والتكنولوجي، وتطورّ علم النفس ومناهج التعليم، ووعي المجتمعات والأمم التي تراهن على التعليم كماً ونوعاً لكسب رهان التعليم والمستقبل بضرورة تجديد أساليب التعليم المتبعة؛ استحدثت الطريقة الحوارية التنشيطية في المدرسة، وهي طريقة تقوم على مبدأ وجوب عدّ الطفل أو المتعلّم محوراً للعملية التربوية، وعنصراً فاعلاً في الفصل، مقابل تراجع دور المدرس الذي اقتصر على إرشاد المتعلمين، وتوجيههم، والأخذ بأيديهم، وإذكاء جذوة حبّ الاطلاع في نفوسهم، وتذليل جميع الصعاب التي قد تواجههم في سبيل حفزهم إلى البحث والتساؤل وعدم التسليم والتقبل السلبي لما يُطرح عليهم.

ويرتكز حثّ الأطفال على النشاط والمساهمة الفعالة داخل فصول المدرسة إلى عدد من الأنشطة الفنية والإبداعية والألعاب الهادفة التي تزرع فيهم حب الاطلاع الذي يمثّل بدوره أساس نجاح الأطفال في اكتساب المعرفة والتعلم؛ فالطفل إذا توافرت لديه هذه الشروط داخل الفصل يتمكّن من فهم أسرع وأنجح.

وإذا كان اللعب بالنسبة إلى الكهل يعدّ نشاطاً مجانياً يُقصد لذاته بغية التسلية والاستمتاع فإن لعب الأطفال شيء مختلف، وله معانٍ كثيرة؛ فاللعب يمثّل توازناً نفسياً للطفل، كما يوفر له مهارات بصرية ويدوية وحركية. واللعبة مثلاً تؤثر في الطفل، وتساعده على تعلّم كثير من المهارات والقيم والخبرات. وهناك لعب تساعد الطفل على تنمية مهاراته الإبداعية أو اللغوية، كما أن النشاط العلمي أو الفني أو الثقافي يمكن أن يستقطب مواهب الطفولة المبدعة، ويصقلها، ويزودها بالمهارات اللازمة.



دور الأسرة

لا تستطيع المدرسة وحدها الاضطلاع بمسؤولية صقل المواهب، وحفز الأطفال إلى الإقبال بنهم على التعلم واكتساب المهارات؛ إذ للأسرة دور كبير يتمثّل في تهيئة ظروف الإبداع؛ إذ تذكي دوافع الابتكار لدى الطفل، خصوصاً في سن الطفولة الأولى؛ فالنبتة الصغيرة في روح كل طفل في حاجة إلى الحرية، وإشباع حب الاطلاع والمعرفة، والطفل في العائلة بحاجة إلى جو نقيّ هادئ تغيب فيه مظاهر العنف والتوتر، ملؤه النقاش، يسوده الحوار وتداول الأفكار، الذي ينمّي فيه أسلوب التفكير الحر. ويجمع المتخصصون في علوم التربية وعلم النفس على أن حب الاطلاع يمثّل أهم عوامل نجاح الأطفال، بل تميّزهم؛ فالطفل الذي يحب الاطلاع على الجديد يتميّز بقابلية تعلّم أسرع وأنجع مقارنةً بالطفل الذي يتّخذ إزاء المعرفة موقفاً سلبياً؛ لذلك وجب تطوير ملكة حب الاطلاع على الجديد لدى الأطفال قبل طور المدرسة.

ويمكن للأولياء أن ينمّوا ملكة حب الاطلاع لدى الأطفال بتوجيه ملاحظاتهم للأشياء والظواهر الطبيعية، وإثارة حاجة الرغبة في التعلم في نفوسهم؛ فالمدينة مثلاً بشوارعها ومبانيها تعجّ بالرموز والكتابات والمعلقات واللوحات؛ كاللافتات الإشهارية والإعلامية والعلامات المرورية، وغيرها التي يمكن لفت انتباه الطفل إليها قصد إشعاره بها وبوظيفتها التواصلية. كما أن الرسائل التي ترد إلى العائلة، والصحف التي تُجلب إلى البيت، والكتاب الذي يقرؤه الوالدان، تمثّل فرصاً لإشعار الطفل وحفزه إلى التقليد وطرح السؤال وحب الاطلاع.

وفي هذا الصدد يسوق دوترانس -العالم المتخصّص في علوم التربية- بعض الأمثلة من السلوكيات التي يتعيّن على الوالدين توخّيها لحفز الطفل، وخلق الرغبة لديه في التعلم عامةً، وتعلّم القراءة وحبها خاصةً؛ فإذا اهتم الطفل الصغير مثلاً بالصحيفة التي يقرؤها أبوه، وسأله عما يوجد فيها، أو إذا سأل أمه عن الأشكال الغريبة التي يراها على واجهات المحلات أو فوق أغلفة البضاعة، فإنه يجب على الوالدين أن يجيبا عن أسئلته بما يزيد رغبته في الوقوف على أسرار الرموز المكتوبة تطوراً: هنا نرى (صحيفة الصباح)، وهنا نقرأ (بائع الحليب)، وعلى هذه العلبة نقرأ (سكر)، وتسأل الأم طفلها: لماذا بائع الحليب؟ ولماذا سكر؟ فيجيب الطفل: لأنه يبيعنا الحليب، ولأنه داخل هذه العلبة سكر. وهكذا يحصل التواصل داخل مختلف أفراد الأسرة، ويشبّ الطفل على حبّ الاطلاع والمعرفة؛ فيشيب على ذلك، ويتحقق هدف التميز في المدرسة والدراسة والتعليم عامةً.

إن اللعب الهادف، وتنمية ملكة الاطلاع، من العوامل المهمة في تنشئة الطفل وحفزه ليقبل على المعرفة والتعلّم؛ فاللعب يعطيه دافعاً للتقبل والاستيعاب وتطوير مهاراته ومعارفه، إضافةً إلى صقل شخصيته، وتهيئته للتقبل والتفاعل مع العائلة والمجتمع المحيط به، وصدق المثل: «عقل مصقول خير من عقل مشحون».

المراجع

(١) أولادنا بين التعليم والتعلّم، عبدالعزيز القوصي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٥م.

(٢) منهل: مختصرات في علم النفس والتربية، البشير الهاشمي، الشركة العامة للطباعة، ١٩٩٤م.

(٣) الأسس النظرية للتربية والتدريس، أحمد شبشوب، التونسية للطباعة وفنون الرسم، ١٩٨٨م.

(٤) Dottrens، Eduquer et instruire، Ed Nathan/ UNICEF، p107.


جمعية
الأطفال
المعوقين
Disabled Children's Association


جمعية وطن



